

مجموعة الأعمال الكاملة



حصاد الصبر



عبد الوهاب مطاوع

دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

رئيس مجلس الإدارة :

محمد عهدي فضلي

حصاد الصبر

عبد الوهاب مطاوع

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة

تصميم الغلاف: د. عبد الكريم محمود

مقدمة

فى هذا الكتاب مجموعة جديدة من قصص الحياة الواقعية التى تعاملت معها عن قرب خلال كتابتى لباب بريد الجمعة الأسبوعى فى الأهرام ، وبعض هذه القصص الواقعية سوف يحرك أشجانك وربما أحزانك .. وبعضها الآخر قد يثير خواطرک وتأملاتك فى أحوال الدنيا الغريبة ، وبعضها الثالث قد يجدد سخطك على كل ما فى الحياة من غدر ومعاناة وتعاسة إنسانية .. وفى كل هذه الأحوال فلقد تزيد هذه القصص والصور الإنسانية من خبرتك بالحياة ، ومعرفتك ببعض أسرار النفس البشرية .. فلقد تعلمت منها خلال تعاملى معها الجديد عن الحياة والبشر والنفس الإنسانية .. وأردت أن أشرك معى فيما تعلمته منها .. وفى درس التجربة الذى دفع أبطال هذه القصص ثمنه غاليا من أمانهم وحياتهم وسعادتهم قبل أن يسطروا تجاربهم على الورق .. وغاية أملى هو أن تزداد بعد قراءتك لهذه القصص تمسكا بالقيم والمثل وكل المعانى الجميلة فى الحياة ، ورفضاً واستنكاراً وإدانة لكل صور الغدر والقبح والظلم الإنسانى فيها .

عبد الوهاب مطاوع

حق الاختيار!

ليست هذه هي المرة الأولى التي أحاول الكتابة إليك فيها .. لكنى أكتب إليك الآن لأن ذلك قد يكون آخر محاولة لانقاذ ما تبقى من حياتى .. فأنا سيدة عمرى ثلاثون عاما حاصلة على شهادة جامعية وعلى قدر من الجمال وقد نشأت فى أسرة كريمة ولى أخوة أصغر منى ، ولقد نشأنى أبى على الأخلاقيات والطباع التى نشأ هو عليها ، وربى فى الإحساس الشديد بالخطأ والصواب فلم أحاول خلال صباى مجرد الحديث العابر مع أى شاب ليس بضغط من والدى ، وإنما عن اقتناع داخلى بذلك ، ثم جاءت المرحلة الجامعية ، وفى اليوم السابق لدخولى الجامعة لأول مرة ، نبهنى أبى إلى أننى سأذهب إلى مجتمع جديد على وأنه يطلب منى أن أدع قلبى لديه هو ليحفظه لى حتى يهديه فيما بعد لمن يشعر بأنه يستحقه ، لأن الهدف من الجامعة هو الحصول فقط على الشهادة وليس أى شىء آخر .. ولم أغضب لما قاله أبى ، لاقتناعى بأنه ليس من حقى أن أهب مشاعرى وعواطفى إلا لمن سوف أتزوجه وحده ، وبدأت مرحلة الدراسة الجامعية ، فلم أقترب من أحد ولم أسمح لأحد من الزملاء بالاقتراب منى، إلى أن

اقتربت بداية العام الجامعى الثالث وذهبت مع والدتى إلى أحد المحلات التجارية بمصر الجديدة لشراء ملابس للجامعة فالتقينا بقريبة لوالدتى لم أرها ولم ألتق بها من قبل .. ولم يستغرق اللقاء بيننا أكثر من ربع الساعة .. لكنه غير مجرى حياتى بشدة بالرغم من ذلك ، فبعد يومين من هذا اللقاء العابر زارتنا شقيقة هذه القريبة فى بيتنا مع زوجها وابنها ، وبعد يوم آخر اتصلت بنا الشقيقة وطلبت مقابلة أبى لخطبتى منه ، وجاءوا لزيارتنا وطلبت منى والدتى تحيتهم فدخلت الصالون وجلست بينهم بعض الوقت والخجل يسيطر علىّ فلا تواتينى الجرأة على التحقق من ملامح الشاب المرشح للارتباط بى ، وفى هذه الجلسة تمت قراءة الفاتحة والاتفاق على موعد الخطبة ثم القران والزفاف على أن أقيم مع زوج المستقبل فى مسكن والدته حيث إنه أصغر الأبناء ، ولم أعترض على ذلك .. بل كنت راضية تماما وعلى ثقة كاملة بحسن اختيار أبى لى .

وتحدد موعد قريب للخطبة وقبل حلوله بيومين أخبرنى أبى بأنه قد قرر أن تكون الخطبة قرانا وأن يتم الزفاف عقب حصولى على الشهادة .. ولم أعترض على ذلك ، بل لقد فرحت بالفستان الأبيض والعريس والشبكة مثلى فى ذلك مثل أية فتاة أخرى .. وتمت الخطبة وعقد القران خلال بضعة أيام من رؤيتى لخطيبى لأول مرة فى الصالون ، وزارنا بعدها مرتين ثم بدأ فترة الخدمة العسكرية .

وبعد شهر آخر اتصلت بنا شقيقته لتبلغنا بأن خطيبى فى الرعاية المركزة بمستشفى المعادى العسكرى .. وهرولت إلى هناك

مع والدتي فوجدناه فى حالة سيئة للغاية ولا يكاد يشعر بما حوله بعد إصابته بنزيف فى المخ ، وتأثرنا جميعا بما أصابه ، ولم يتردد أبى فى أن يؤكد لوالده أننا لن نتخلى عنه مهما حدث له لأنه زوج ابنته ، وبعد فترة ليست قصيرة غادر خطيبى المستشفى على أن يرجع إليه للمتابعة الصحية كل أسبوع لمدة ستة أشهر ، وشعرت بالحزن والأسى لخطيبى وأنا أراه يتكلم دون تركيز أو بلا توقف ولا يحب أن يقاطعه أحد .. علاوة على عصبية الشديدة ، ومرت هذه الفترة العصبية من حياتى بصعوبة شديدة ودفنت كل أحلامى القديمة فى السعادة والحب والتفاهم مع من أحب ولن يلمس يدي سواه ، وتحطم كل شئ فى داخلى .. ولم يبق إلا الحزن والصمت وأنا أرى خطيبى عصبيا بدرجة لا يمكن تصورها ولا يعرف معنى كلامى ولا أتفاهم معه على أى شئ وأنهيت دراستى الجامعية وسط هذه الظروف العصبية ، وطلب أهل خطيبى بالحاح إتمام الزواج على أساس أنه الحل الوحيد لتهدئة أعصابه ، حيث إنه يشعر بالغيرة على من كل شئ ، ووافق أبى على ذلك ، لكنه وبسبب ما لاحظته من عصبية الشديدة توجه إلى الطبيب الذى أجرى له الجراحة فى مستشفى المعادى ليستفسر منه عن حالته ، وأبلغه الطبيب أنه قد أجرى له عملية استئصال جزئى لفص التفكير الأيمن فى المخ وأن من النتائج المتوقعة لمثل هذه الجراحة .. العصبية الشديدة ، ولهذا فقد طلب من والده عقب الجراحة .. أن يعرضه على أحد أساتذة الطب النفسى لتخفيف آثار الصدمة ونتائج الجراحة عنه ، لكن الأهل لم يفعلوا ذلك حرصا على سمعته !

ومضى والدى بالرغم مما عرفه فى اتمام اجراءات الزفاف وشراء الأثاث والجهاز ، وفوجئنا بخطيبى يأتى إلينا ليبلغنا بأنه استأجر شقة لتكون عشا للزوجية بدلا من الإقامة مع والدته كما كان الاتفاق السابق .. ورحبنا بذلك وذهبت مع والدى ووالدتى لرؤية الشقة فلم نسترح إليها وحدثت مشكلة عائلية كبيرة لأن أسرة خطيبى كانت قد وقعت العقد ودفعت المقدم وصدرت عن خطيبى خلال ذلك تصرفات وألفاظ أزعجت أبى بشدة حتى إنه قرر لأول مرة عدم اتمام الزواج ، إلا أن الأهل تدخلوا وضغطوا عليه وأقنعوه بأن كل ما صدر عنه خارج عن إرادته ، وأنه ليس من المصلحة أن تصبح ابنته مطلقة بعد عامين من الارتباط خوفا من كلام الناس .. الخ . ورضخ أبى فى النهاية بعد اعتذار خطيبى وأهله عما حدث .. وفى حفل عائلى تم الزفاف وبدأت المأساة الكبرى فى حياتى التى مازلت أعانيها حتى الآن .. وبغير الدخول فى تفاصيل مخجلة فلسوف أقول لك فقط إن أبى قد رحل عن الحياة بعد زفافى بيومين بأزمة مفاجئة ، وأن زوجى بدأ يستسلم لنوبات العصبية الشديدة من الأيام الأولى لزفافى الذى لم يتم فى الحقيقة حتى إنه قد ضربنى بعد ١٥ يوما فقط من الزواج وسالت الدماء الغزيرة ، حين ضرب كوب الماء بيده فتناثرت أجزاءه وتطايرت الدماء على الجدران والسقف كأننى فى أحد مشاهد أفلام الرعب المخيفة .. ثم بعد قليل راح يعتذر لى ويعدنى بعدم تكرار ما فعل ويطلب تكتم كل شئ .. ولقد تكتمت بالفعل ما أعانيه وصبرت عليه غير أن والدتى رأت بالمصادفة علامات الضرب على جسدى وسألتنى عنها فانهرت واعترفت لها بكل

شئ ، واصطحبتنى أمى إلى طبية أخصائية لعلاجى .. ووقف أعمامى بجوارى وطلبوا من أسرة زوجى الطلاق خاصة بعد أن استفسروا عن حالة زوجى لدى الطبيب الجراح لكن والدتى خشيت من كلام الناس عن الفتاة التى تزوجت فمات أبوها بعد زفافها بيومين فجأة ، وطلقت بعد رحيله عن الحياة بأقل من شهر ، واتفقت مع والددة زوجى على عودتى له بشرط أن تستمر شى فى علاجه ، وأن تتعهد لها إذا لم ينجح العلاج بأن تعيدنى إليها كما أخذتنى منها عذراء لم يمسهها بشر لكى أستطيع بدء حياة جديدة فى مكان آخر .

وتعهدت والددة زوجى لأمى بذلك ، غير أن الأمور تطورت للأسف فى اتجاه مختلف ، فلقد اصطحبتنى حماتى بعد أيام من عودتى إلى طبية تعرفها لأمراض النساء والولادة للاطمئنان علىّ كما قالت لى ، وذهبت معها بحسن نية فما إن رقدت على سرير الفحص ، حتى فوجئت بحماتى تجثم فوق صدرى لتمنعنى من الحركة ، وإذا بالطبيبة - سامحها الله - تقضى على مستقبلى باتفاق مسبق مع والددة زوجى .. وفى نفس الليلة حملت فى طفلى الوحيد وأنجبته بعد تسعة أشهر ، وفرحت به رغم الأحزان المحيطة ، وخيبة الأمل فى كل شئ ، ومضت الأيام حافلة بكل ما لا ترغبه عروس شابة لنفسها ، حتى اكتملت سبع سنوات تجرعت خلالها كل أنواع الإهانة من زوجى ومن أهله الذين عاملونى أسوأ معاملة هم أيضا لضيقهم بحالة ابنهم علاوة على عصبيته التى زادت على كل حد والضرب ولم أكن أفعل شيئاً لدفع هذا الظلم عنى سوى اللجوء إلى بيت أمى غاضبة من حين

لآخر حتى أمضيت نصف فترة زواجى تقريبا فى بيتها ، ثم انهارت أعصابى تماما فى النهاية وتعرضت لمحاولات مقززة من بعض الأشخاص القريبين من زوجى وأسرتة لدفعى للخطأ غير أن الله سبحانه وتعالى قد حمانى منه ومنهم .

وزادت الإهانات من جانبه ومن جانب أهله وتضاعفت المعاناة ، وذهبت معه إلى عدد كبير من أطباء الأمراض العضوية والنفسية الذين كانوا يطلبون بعد عدة جلسات مع زوجى رؤيتى والحديث معى عن حالته ، فكان بعضهم يفعل ذلك بإخلاص وأمانة .. وكان البعض الآخر للأسف يغازلنى اعتمادا على ما يعلمه عن حالة زوجى .. وتداخلت عوامل كثيرة نفسية وصحية لا تفى الكلمات مهما حاولت بوصفها ، وفقدت ما بقى من قدرتى على الاحتمال فانفصلت عن زوجى وتنازلت له عن كل حقوقى وعن الشقة بالرغم من أنى حاضنة لطفلى وتحملت مسئولية الطفل وحدى ومضى عام وبعض عام استرددت خلالها بعض صحتى المتدهورة ، وبعض معنوياتى المنهارة ، ثم بدأ زوجى السابق يطالبنى بالعودة إليه مرة أخرى مؤكدا لى أنه قد تغير وأنه لن يهدر كرامتى مرة أخرى وأنه .. الخ . ومن جانبها راحت والدتى تضغط علىّ للعودة إليه والرجوع إلى شقتى الجميلة حفاظا على ابنى .. الخ .. وأنا تائهة وحائرة ولا أستطيع اتخاذ القرار السليم .. إننى لا أنكر على زوجى السابق أنه طيب وأن تصرفاته التى أشكو منها ترجع إلى عصبية الشديدة وحالته الصحية ، كما أنه ميسور إلى حد ما ، لكنى لا أعرف ما أفعل .. ولست على ثقة بأن كل ما عانيته طوال سبع سنوات سوف

يختفى بجرة قلم إذا رجعت إليه ، ولقد رحل أبى عنى وعجزت عن التفكير واتخاذ القرار الصحيح .. وأرجو أن تعتبرنى ابنتك وأن تشير علىّ بما يشير به الأب على ابنته فى مثل هذه الظروف الدقيقة .. وشكرا لك .

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

لك بعض العذر يا ابنتى فى عجزك عن التفكير واتخاذ القرار السليم فى الاختيار الذى يواجهك الآن .. ليس لأن الاختيار صعب ومحير وتتشابه فيه البدائل على نحو يصعب معه اختيار الأصلح منها ، وإنما لأن والدك قد عودك أن يتولى هو « التفكير » بالنيابة عنك واتخاذ القرارات المصيرية لك بغير أن يكون لك شأن كبير أو صغير فى اختيارها .. فإذا كان قد أحسن إليك بتنشئتك على القيم الدينية والفضائل والنفور من الخطأ والخطيئة ، فلقد أضربك للأسف من حيث لم يرغب بحنوه الزائد عليك وحرصه الشديد على أن يجنبك مئونة الاختيار لنفسك ، وليس أسوأ من تخلى الآباء والأمهات عن مسؤولياتهم المادية والمعنوية عن أبنائهم وتركهم للفرق فى دوامة الحياة إلا مصادرة الآباء والأمهات لحق هؤلاء الأبناء فى التفكير والاختيار واتخاذ القرارات المصيرية فى حياتهم بالاستعانة بحكمة الأهل .. فكلا الأمرين شطط يخرج عن جادة الاعتدال ويعرض الأبناء للضياع فى معركة الحياة . وليست مهمتنا كأباء وأمهات أن « نفكر » نحن بالنيابة عن أبنائنا فى حياتهم ، وأن نتخذ لهم قراراتهم المصيرية دون مشاركة منهم فيها ، وإنما أن نغرس فيهم إلى جانب الفضائل

والقيم الدينية القدرة على التمييز بين الخير والشر ، وبين الصواب والخطأ .. والقدرة على « التفكير » فى شئون حياتهم واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها فيما يواجهونه من اختيارات واختبارات خلال رحلة العمر ، فالعضو الذى لا يستخدمه صاحبه من أعضاء الجسم يضعف ويتدهور بأسرع من العضو الذى يتكرر استخدامه والاعتماد عليه ، وكذلك إرادة الإنسان وقدرته على ممارسة المسؤولية عن نفسه وعن الآخرين وممارسة حق الاختيار والتفكير .. غير أن هذا العمل السلبي ليس وحده المسئول عن حيرتك الآن .. فلقد تداخل معه عامل آخر فى صنع مأساتك ، هو التحرز المغالى فيه ضد كلام الناس والخوف الزائد من ألسنة السوء .. وبسبب ذلك تراجع والدك عن الالتزام بقراره بعدم اتمام زواجك قبل الزفاف ، بعدما لمسه عن قرب من تصرفات خطيبك وعصبيته الشديدة وتجاوزاته الصارخة خلال أزمة شقة الزواج ..

وإذا كان موقفه فى المستشفى حين أكد لوالده أنه لن يتخلى عنه مهما حدث له من عوارض الحياة ، مما يحسب له ولشهامته وأصالته وإيمانه الصحيح بأنه لا ذنب لمثل هذا الشاب فى أقداره المؤلمة ، فإن موقفه حين تراجع عن قرار عدم اتمام الزواج بدعوى الخوف من كلام الناس ، لهو مما يحسب عليه وليس له أو لحكمته وبعد نظره ، ذلك أنه لو كان قد تمسك به وقد لمس بنفسه تجاوزات الشاب واجترأه على الغير حتى ولو كان لحالته الصحية أثر فى ذلك ، لأعفاك من كل هذا العذاب الذى تجرعته على مدى سبع سنوات عجاف

في حياتك ، وأثمر هذا الطفل الحائر المحروم من نشأته الطبيعية بين أبويه .. كما أن والدتك - لو لم تكن قد تأثرت بهذا العامل السلبي نفسه وهو المغالاة في التحسب لما سوف يظنه بنا الآخرون - لتمسكت بانفصالك عن زوجك بعد اكتشافها ضربه وإيذاءه لك في الأيام الأولى من الزواج ، حتى ولو كان الأمر قد تطلب منها أن تستضيفك لديها بضعة أسابيع بدعوى تهدة الحال .. لتطيل أمد الزواج نسبيا قبل الانفصال ونحن مطالبون بالفعل بالحرص على سمعتنا .. وبأن نتجنب الشبهات ونكف السنة الغير عنا بالالتزام بالطريق القويم في الحياة ، لكن هذا الحرص الحميد لا ينبغي له أن يتجاوز الحدود الآمنة .. لكيلا نعلق سعادتنا وحياتنا على أطراف السنة الغير ، وندعهم يقودون حياتنا ونعجز نحن عن اتخاذ القرار السليم الذي تفرضه الظروف القاهرة علينا حين تدعو الحاجة إلى ذلك . والطريق إلى جهنم قد يكون مفروشا في بعض الأحيان كما يقول المثل الانجليزي بالنيات الطيبة ، وليس أدل على ذلك من أن والدتك بدلا من أن تعينك على القرار الصحيح قد وثقت بحسن نية في تعهد والدك زوجك لها بأن « تعيدك » إليها سالمة إذا لم ينجح العلاج مع ابنها المحكوم بأقداره ، كما أنك أنت أيضا قد ذهبت بحسن نية معها إلى الطيبة بدعوى الاطمئنان عليك فإذا بها تدخر لك أمرا آخر أسهم للأسف في تعقيد المشكلة وإطالة سنوات العذاب .. والآن فإن والدتك تضغط عليك من جديد للعودة إلى زوجك السابق من أجل شقتك الجميلة ، ومن أجل

ابنك .. إلخ وأخشى أن يكون قد أضيف إلى العوامل السابقة التي شاركت في صنع تعاستك عامل آخر لا يخلو من شبهة الاعتبار المادى والرغبة في التخفف من بعض الضغوط المادية بالنظر لمسئوليتك عن طفلك الوحيد .. ومن خبر طريقا فلم يؤد به من قبل إلى الغاية التي ينشد بلوغها ليس من الإنصاف لنفسه أن يحاول اختباره مرة أخرى مؤملا أن يؤدي إلى غاية أدرك بالتجربة أنه لا يقود إليها . ولهذا فإنى أدعوك إلى اسقاط كل هذه العوامل السابقة من اعتبارك وأنت تفكرين فى الاختيار لحياتك مرة أخرى بعد كل ما جرى وكان ، وأطالبك انصافا لنفسك بأن يكون العامل المؤثر الحقيقى فى قرارك بالعودة أو رفضها هو هل حدث بالفعل أى تغير إيجابى حقيقى فى شخصية زوجك السابق وحالته العصبية وظروفه الصحية .. أم لا ؟.. وهل انتظم فى العلاج النفسى والعصبى والعضوى خلال الفترة الماضية وحقق العلاج نتائج إيجابية طيبة أم لا ؟.. وهل أصبح أكثر قدرة على تمالك نفسه وأعصابه وكف لسانه عن الأذى والإهانات ، وتعلم من تجربته أن يحسن عشرة من تتحمل ظروفه أم لا ؟.. ثم هل هو بعد كل ذلك ، على استعداد لأن يطمئنك على تحسنه باصطحابك مع والدتك إلى الأطباء المعالجين له لتسمعا منهم شهادة محايدة عن حالته العصبية والعضوية ؟.. هذه هى العوامل الأولى بالاعتبار فى قرار العودة .. إلى جانب العامل الآخر المحورى وهو مصلحة هذا الطفل الحائر بالطبع .. أما الوعود والكلمات التي لا يصدقها العمل فإنه لا يمكن الاعتماد

عليها في مثل هذه الظروف ، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يحاسبنا على الانخداع بما سبق لنا أن انخدعنا به من قبل بغير أن نتعلم من تجربتنا معه ، ونحترس له .. والحق أن هناك ما يثير الريبة لدى في أن بعض تصرفات زوجك معك وإهاناته لك لا يمكن ارجاعها كلها إلى حالته العصبية والصحية ، ذلك أن العصبية المرضية إذا كانت تتمثل في سرعة الاستثارة والانفعال والغضب ، فإنها لا تعنى بالضرورة إيذاء الغير وإهانتهم .. وإلا فلماذا لا تتوجه هذه العصبية المرضية إلى الغرباء الذين يتحسب العصبيون لردود فعلهم تجاههم ، فلا تتجاوز عصبيتهم معهم أبداً الخطوط الحمراء إلى الضرب والعدوان والإهانات الجارحة ؟!

إن المؤسف هو أن مثل هذه العصبية حتى ولو كانت لأسباب مرضية ، تتوجه في الأغلب الأعم لمن يعرف أصحابها أنه لن يرد عليهم العدوان بالعدوان ، ويشجع الضعف والاستكانة وقلة الحيلة أصحابها على التماذى ، مما يدفعني لأن أشك في أن بعض مظاهر عصبية زوجك السابق معك وإهاناته لك إنما تتداخل فيها أسباب أخرى تتعلق بسوء الطبع والاستضعاف ، وشيء من الاحساس بالتمايز الطبقي أو المادى عليك مع تقديرى للاعتبارات الأخرى المتعلقة بظروفه الصحية أعانه الله عليها ولهذا فهو يحتاج إلى أن يراغم نفسه على أن يصلح من أمره .. ويحسن عشرتك ويعينك بذلك على التجاوز عن الانفلاتات العصبية الراجعة لحالته المرضية ..

ففكرى يا ابنتى فى أمرى بنفسك . ولا تدعى أحدا غيرك
يفكر لك ، ولا تغامرى بالاستجابة للضغوط قبل أن تتيقنى
من أن تغيرا إيجابيا حقيقيا قد حدث فى شخصية زوجك
السابق وحالته الصحية والعصبية وطباعه .. ونظرتك لك
والحياة .. فإن لم تطمئننى لذلك .. فلا داعى لتكرار التجربة ..
وتكبد العناء عامين أو ثلاثة أعوام أخرى ترجعين بعدها إلى
بيتك وعلى ذراعك طفل محروم آخر ..

سر التحول !

أنا رجل فى الرابعة والأربعين من عمري .. تزوجت منذ ستة عشر عاما من إنسانة طيبة ، كانت أختا لصديق لى ، وكان والدى يحب صديقى هذا من بين كل أصدقائى فرشح لى شقيقته للزواج منها قبل أن يراها .. ورحبت أنا بهذا الترشيح قبل أن أتحدث معها أو أعرفها عن قرب ، وتزوجنا وأقمنا فى البداية مع والدة زوجتى .. ثم انتقلنا بعد فترة إلى شقتنا التى أعدناها لتكون عشا للزوجية وانتقلت والدتها معنا حيث كانت تستريح للإقامة بيننا ، وأنجبنا طفلنا الأول ، وبعد مجيئه إلى الحياة رفضت زوجتى الانجاب مرة أخرى وتمسكت بذلك لمدة ثمانى سنوات كاملة إلى أن أقتنعت بضرورة انجاب شقيق أو شقيقة أخرى لابننا الوحيد ، فأنجبنا طفلنا الثانى وبلغ من العمر الآن سبع سنوات ، ومنذ الأيام الأولى لزواجنا ملكت على زوجتى قلبى وعقلى وكيانى بأخلاقها الكريمة وطيبتها وأصالتها ، حتى أصبحت بعد فترة قصيرة من الزواج أهما بها حبا ، ولا أضع أية إنسانة أخرى فى الوجود موضع المقارنة معها ، وأحرم على نفسى مجرد النظر إلى غيرها من النساء ، أما هى فلقد اعتبرتنى أيضا كل شىء فى

حياتها ، وملكت عليها أنا كذلك قلبها وعقلها وكيانها ، حتى كانت تتصل بى فى عملى من عملها لتبثنى شوقها وافتقادها لى فى الساعات القليلة التى فصلت بيننا .. ومضت بنا الحياة سعيدة وجميلة وهادئة على هذا النحو .. وأنا لا أقصر فى بذل الجهد لارضاء زوجتى وتخفيف الأعباء عنها ، فكنت مهما تأخرت فى العمل ليلا أحرص على الاستيقاظ فى السادسة صباحا لاعداد الشطائر للولدين . والافطار لزوجتى .. ثم اصطحب الولدين للمدرسة وأترك سيارتنا الصغيرة أمام مدرستهما وأهرول إلى عملى ، وعند انتهاء الدراسة أرجع إليهما فأصطحبهما ثم أتوجه إلى عمل زوجتى وأصطحبها إلى البيت ونرجع معا ، فلا استريح سوى لحظات ثم أهرول عائدا إلى عملى ، هذا بخلاف قيامى بشراء كل مستلزمات البيت .. والاستجابة لرغبة زوجتى ووالدتها فى شرائها من أماكن محددة بعينها على مسافات بعيدة ومختلفة ، فالخبز لابد من إحضاره من فرن خاص يبعد عن منزلنا ١٢ كيلومترا بالسيارة ، واللحم لابد من شرائه من جزار بعينه على بعد ١١ كيلومترا فى اتجاه مختلف .. والبقوليات من محل محدد على مسافة ١٥ كيلومترا ، وكذلك الخضراوات والدجاج والأسماك والبقالة كل منها من مكان معين لا بديل له ، حتى المياه الغازية كان لها أيضا مكان أفضل من غيره لشرائها منه ، مع أنها تعبئة واحدة ومن خط انتاج واحد ، لكنى رأيت ذلك يرضى زوجتى ووالدتها فكنت استجيب لما تطلبان وأحضر لهما ما تريدان من الأماكن التى يفضلانها إلى جانب تحملى مسئولية نظافة الشقة وحدى ومعاناتى فى سداد أقساط شقة أوسع نخطط

للانتقال إليها ، واختلاف مواعيد نومى تبعا لتغير ورديات العمل ، ثم بدأت فى الفترة الأخيرة ألاحظ إهمال زوجتى لى وتجاهلها على غير سابق عاداتها لغضبى إذا غضبت منها لأى سبب من الأسباب العابرة وتركها لى دون سؤال عن سبب غضبى وانفعالى إلى أن أبدأها أنا بالكلام والعتاب ، كما بدأت تتجاهل محاولتى الخفية للحديث معها فى أى شىء ، بكبرياء راح يتزايد مع الأيام ، فإذا انتهى هذا التجاهل بانفجارى فيها وسبابى بكت وراحت تشكو من أنها مظلومة وأننى دائم العصبية بلا سبب ، ثم يتدخل شقيقاها ويسمعان منها ومن والدتها ومنى ، فيجدان اللوم واقعا عليها لتجاهلها لى وتركها الأمور حتى تصل إلى حافة الانفجار ، وقد تكرر هذا الموقف منذ أربعة أشهر ، وجاء شقيقها فشهدت لى والدة زوجتى بأننى لم أقصر فى حقها فى شىء بل إننى حتى فى حالة الخصام أعد لها طعام الافطار وأحضرها بالسيارة من العمل ، فلام شقيقته وغضب منها . وانهارت هى ، ثم اتفقت مع شقيقها على أن أترك لها البيت فترة إلى أن تهدأ أعصابها وانتقلت إلى بيت والدتى ، وأمضيت به ثلاثة أيام ، مرت على كأنها ثلاثة أشهر دون أن يسأل عنى أحد من زوجتى أو أبنائى فاتصلت بشقيقها واقترحت عليه أن أرجع إلى بيتى وأن تنتقل هى للإقامة لديه لبعض الوقت حرصا على انتظام الأبناء فى الدراسة وإلى أن ترجع المياه إلى مجاريها بيننا ، ورجعت للبيت وفوجئت بأن والدة زوجتى قد غادرت مع ابنتها وكنت قد طلبت بقاءها معى ومع الأبناء ، وبعد يومين جاء شقيق زوجتى ليبلغنى بإصرار زوجتى على الانفصال وطلب الطلاق ، وانهرت حين سمعت ذلك ورفضت

بشدة وطلبت منه التروى لأنه ليس هناك سبب جدى يدعو إليه ،
وكثيرا ما تشهد الحياة الزوجية خلافات أكبر من ذلك ثم تستمر
وتتواصل بلا عناء .. لكن كل المحاولات مع زوجتى لاثنائها عن
رغبتها المفاجئة فى الطلاق باءت كلها بالفشل ، ومنذ أربعة أشهر
لم يمض أسبوع واحد دون أن أرسل إليها فضلاء الأقارب
والمعارف للتوسط بينى وبينها لاقتناعها بالعودة دون جدوى ..
وقد تركت الأبناء طوال هذه الفترة معى وهى تعلم ظروف عملى
التي تضطرنى لتركهم فى الليل فى كثير من الأحيان ، ومنذ
أسابيع جاءت إلى البيت وطلبت منى الطلاق وهددتنى بأنى إن
لم استجب لطلبها فإنها سوف تنتحر ، وطلبت من ابنيها أن
يقنعانى بطلاقها وإلا فإنها سوف تنتحر .. ويعيشان وأعيش أنا
وهما ونحن نحمل ذنبها فى أعناقنا ! وانهار الولدان باكيين
واحتضنتهما وهدأت من روعهما لكنهما مرضا بعد ذلك لمدة
١٥ يوما لم يرق خلالها قلبها لهما أبدا !!

لقد بكيت كثيرا يا سيدى أمام أبنائى وأنا أتعجب لهذا التحول
الغريب فى مشاعر زوجتى تجاهى وتجاه أبنائها ورغبتها الشديدة
هذه فى الطلاق .. وشاركنى شقيقاها ووالدتها التعجب لهذا التغير
ولعدم سؤالها عن ابنيها ولعنادها وجفائها واتفقوا على أن
ما حدث لا يستحق الطلاق ولا يدعو إليه ، حتى لقد توسط بيننا
رجل دين كبير له مقام جليل عند الجميع وطلب منى الصبر عليها
وتحملها إلى أن تهدأ أعصابها ونصحنى بعرضها على الطبيب
النفسى لعله يستطيع مساعدتها .. لكنها مازالت ترفض كل
المحاولات والمساعى ، وإنى اسألك لماذا يبيع الإنسان عشرة العمر

والأبناء هكذا ولأسباب يمكن معالجتها والتغلب عليها ؟
لقد رميت نفسي بالخطأ .. دون أن أخطئ وراجعت نفسي
وتعهدت بضبط النفس والتحكم فى الأعصاب والتوقف عن أى
شئ يغضبها وأرغب بشدة فى الحفاظ على البيت والأبناء ، لكنها
ترفض كل ذلك وتقول إنها لم تكن سعيدة معى وتروى أشياء
صغيرة من تراكمات ١٦ سنة من الزواج كنت قد نسيتها تماما
ولا أراها تستحق أن يتذكرها أحد .. لكنها تحفظها عن ظهر قلب
وتعيد روايتها بتفاصيلها العجيبة ولا تقتنع بكلام الأهل والأقارب
والأصدقاء .. وتصر على أن تفقد أكثر ثلاثة أشخاص فى الوجود
يكونون لها كل الحب والاعزاز وهم أنا والولدان ، فماذا أفعل لكى
أستعيد زوجتى وسعادة ابنى واستقرارهما .. إننى لست ممن
يبيعون العشرة بسهولة حتى ولو باعتهما زوجتى ، ومازلت أمل أن
يهدىء الله النفوس ويفتت هذا الحجر الصلد الذى تكون داخل
صدر زوجتى حتى ما عادت تهتم برؤية الولدين وتصرح بأنهما
إذا كانا لا يريدانها فإنها هى الأخرى لا تريدهما .. فهل تستطيع
لى شيئا يمنع هذا البيت من الانهيار ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

إن لم أستطع لك شيئا وقد فشلت كل الجهود والمساعى بما
فيها جهود رجل الدين الجليل الذى أشرت إليه فى اقناع
زوجتك بالتنازل عن رغبتها العنيدة فى الانفصال عنك ،
فلعلى أستطيع على الأقل أن أفسر لك بعض ما غمض عليك
فهمه من سر تحولها « المفاجيء » عنك وقد كنت تظن كما

تقول إنك قد ملكت عليها قلبها وعقلها وكيانها كما ملكتها هي عليك بالفعل .

« فالحجر الصلد » الذى تقول إنه قد تشكل فى صدر زوجتك كغيره من الأحجار الجيرية يتكون من ذرات صغيرة ، تتجمع فى البداية حول نواه أولية ثم تتراكم عليها الإضافات الجديدة يوما بعد يوم .. فتتماسك معها ، وتلتحم بها وتزداد صلابتها على مر السنين إلى أن يأتى وقت يتعذر فيه تفتيتها وإزالتها إلا بقوة ضاغطة هائلة .

وآفة العلاقات الزوجية فى كثير من الأحيان .. هو أن طرفيها أو أحدهما قد لا يبادر بإزالة هذه الذرات الجيرية الضئيلة فى بدايتها ، مستعينا على ذلك بالرغبة المشتركة فى السعادة وانجاح الحياة الزوجية .. وروح التسامح .. ونسيان الاساءات الصغيرة ، فتكون النتيجة هى أن تتراكم هذه الذرات تحت السطح ، وتستقبل المزيد والمزيد ، وتساعد الذاكرة غير المتسامحة على اختزانها والحفاظ عليها .. إلى أن تأتى لحظة فاصلة يشعر فيها أحد الطرفين وكأن حجرا هائلا قد جثم فوق صدره وحال بينه وبين التواصل مع شريك حياته ، فإذا كان من أهل العطاء وإنكار الذات من أجل سعادة الأبناء تجرع علقم الانفصال الروحى عن شريكه صابرا ورضى بحياته كما هى عليه مفضلا سعادة ابنائه على سعادته ، وإذا كان من طالبى السعادة الشخصية ولو على حساب أمان أبنائه ، فوجىء الطرف الآخر بتحويله « المفاجيء » وإصراره على الانفصال عنه فوقف أمامه

ذاهلا وعاجزا عن الفهم والتفسير !
والخلاصة هي أننا لا نحسن في بعض الأحيان فهم دخائل
نفوس شركاء الحياة وحقيقة مشاعرهم تجاهنا وتجاه الحياة
المشتركة التي تجمع بيننا ، ونظن في أحيان عديدة أن ركود
سطح الماء في بحيرة الحياة يعنى صفاء الجو وخلو القاع مما
يمور فيه من تيارات متضاربة ودوامات عنيفة واحسب أن
هذا هو ما حدث في حياتك بالرغم من أن زوجات كثيرات قد
يغبطن زوجتك على شريك محب ، متعاون ومعتطاء مثلك يعد
الشطائر لأبنائه والإفطار لزوجته في الصباح .. وينظف
البيت دونها . ويجوب شوارع المدينة طولا وعرضا لشراء
احتياجاتها من أماكن محددة على مسافات بعيدة وتشهد له
حتى والدتها بأنه لا يقصر في أداء واجباته تجاهها ولو في
حالات الخصام معها ..

إن ما هي المشكلة يا صديقي ؟

المشكلة هي أن زوجتك هي التي ملكت عليك قلبك وعقلك
وكيانك طوال السنوات الماضية وإنك لم تملكها بنفس هذا
القدر ولا ببعضه .. أو حتى بشيء منه .. والحب كالدنيا التي
قال عنها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا أقبلت
على إنسان كسته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته
محاسن نفسه !

ولقد أدبر عنك حب زوجتك لك فسلبك للأسف محاسن
نفسك ولم يكسك محاسن غيرك ، وأسهمت الانفلاتات
العصبية والذاكرة « الحافظة » لزوجتك في تضخيم العيوب

حتى عدتها « خطايا » لا يجوز التجاوز عنها ، مع أنه لا يخلو إنسان على وجه الأرض بمن فيهم زوجتك من قدر من العصبية والانفعالية في بعض الأحيان .. لكن الحب قلب غفور .. والكراهة قلب حقود لا يغفر ذنبا ولا ينسى إساءة ، وهكذا راح الحجر الصلد يتشكل تحت السطح ببطء إلى أن جاءت اللحظة الفاصلة وانفجر الموقف بينكما ..

فأما هذه اللحظة الفاصلة فإله سبحانه وتعالى هو وحده من يعلم إذا كانت هناك « أسباب خارجية » قد عجلت بظهورها إلى السطح أم لا .. غير أن ظاهر الأمر وإصرار زوجتك على الطلاق إلى حد التهديد بالانتحار ومطالبتها لابنيها بإقناعك به .. كل ذلك يوحي بأن الأمر لم يعد تجدى معه أى محاولات للاقناع أو المناشدة .. وفى ظنى أنها لن تتنازل عن تمسكها بطلب الطلاق .. مهما فعلت أنت أو تمسكت بها وتذلت لها لكى تقبل بالعودة إليك وفى كل الأحوال فإنك لا تستطيع أن تمسك عليك زوجة كرهت الحياة معك ولم تقدر لك كل ما قدمت لها من حب وتضحية وعطاء على مر السنين ، وبلغت بها كراهيتها لهذه الحياة أن ضحت فى سبيل الخلاص منها ، بسعادة ابنيها واستقرارهما وحبهما لها .. والمرأة إذا بلغت هذا الحد من الإصرار على رفض حياتها الزوجية ولو ضحت فى سبيل ذلك بمشاعر ابنائها تجاهها ، فإنه لا يعدل بها عن هذا الإصرار شىء ، ولا هو من الحكمة إرغامها فى مثل هذه الظروف على القبول بحياتها الزوجية مرة أخرى .. لأن ذلك لن يعنى فى الأغلب الأعم إلا الحفاظ

على شكل الأسرة دون جوهرها .. وقد يفتح الباب لشروور وآثام أخرى .

فإذا كنت أقدر لك حرصك على ابنك وأسرتك ومحاولتك المخلصة لانقاذ حياتك الزوجية من الانهيار ، فإنى أذكرك على الناحية الأخرى بأنك قد أديت واجبك فى السعى للحفاظ على أسرتك ورأب صدعها وحماية استقرار حياة أبنائك ، لكن ليس كل ما يرجوه الإنسان لنفسه يستطيع أن يحققه لها حين يتعلق الأمر بارادة طرف آخر لا يشاركه مثل هذا الحرص على الحياة الزوجية وهذه الرغبة المخلصة فى استمرارها وانقاذها من الانهيار فلا تمتهن نفسك أكثر من ذلك يا صديقى فى استجداء عودة زوجتك لك ولابنيها ، وأقبل بما ليس منه بد - ولو مؤقتا - عسى أن تعلمها الأيام ما لم تكن تعلم .. أو يعوضك الله عنها وعن حياتك السابقة معها خيرا كثيرا ..

الزلازال المدمر!

قرأت رسالة « الأرض العطشى » للزوجة التى تشكو من انشغال زوجها عنها بأبحاثه ودراساته فكان من أمرها أن بدأت تشعر بالضعف تجاه أحد زملائها بالعمل وتستجيب لكلمات الاعجاب والعاطفة التى يبعثها لها .. كما قرأت أيضا ردك الصادق عليها ونصيحتك المخلصة لها بالألا تنسى التزاماتها الدينية والخلقية وأن تحاول أن تبعث الدفاء فى علاقتها بزوجها وتوقف كل اتصال بينها وبين زميلها هذا الآن وعلى الفور قبل أن تنجرف خطوة أخرى فى الطريق المنحدر حيث تقودها كل خطوة عليه إلى أخرى أكثر انحدارا ولا يكون الرجوع منه أبدا بغير خسائر جسيمة على الجبهة الأخلاقية والعائلية والإنسانية . وأريد أن أروى لهذه السيدة قصتى التى قد لا يجرؤ رجال كثيرون على أن يرووها لغيرهم لكى أسهم معك فى تبصيرها بما تفعل ، وهى مازالت على رأس المنحدر .. وقبل أن تخطو خطوات أخرى على طريقه المائل . فأنا رجل فى الخمسين من عمرى متزوج ولى ثلاثة أبناء ومن مستوى اجتماعى ووظيفى متوسط ، ومنذ اليوم الأول لزوجى احببتنى زوجتى حبا ملأ عليها كل كيانها وأحبيت

أنا زوجتى الجميلة بكل مشاعرى ، وسعيت دائما إلى إرضائها وإسعادها .. وأشعرتنى هى على الدوام بثقة شديدة فى نفسى ، وبحبها الكبير لى ، وأعجبني فيها دائما إيمانها العميق بربها الذى تتكلم عنه دائما وكأنما تراه .

وتعلمت منها أن أدفع زكاة المال لأول مرة فى حياتى ، وأدينا فريضة الحج معا ، ولقد كانت زوجتى طوال رحلة زواجنا أكثر اهتماما منى وأكثر طلبا لعلاقتنا الخاصة ، ولم أكن أنا حسبما أعتقد وطبقا لملاحظاتي على غيرى مقصرا فى هذه الناحية غير أنها من فرط حبها لى كانت تريدنى كثيرا ، وتصاب بالاحباط أحيانا بسبب ذلك .

ومضت حياتنا هادئة وسعيدة بالرغم من بعض جوانب الإحباط المتبادل بيننا ، حيث كانت زوجتى لا تسعد أبدا بأى لقاءات جماعية أو مناسبات اجتماعية تجمعنا مع غيرنا ، وتفضل دائما أن نكون وحدنا سواء بقينا فى البيت أو خرجنا معا كما كانت أيضا تميل إلى كثرة النوم وتتأخر أحيانا عن القيام ببعض أعباء البيت ، غير أن القافلة السعيدة كانت تسير فى طريقها .. وكبر الأبناء وأصبحوا موضع حبا الأكبر ومصدر سعادتنا المشتركة وباتوا مع زوجتى هم أهم شىء فى الوجود بالنسبة لى .. ثم لاحظت أن زوجتى قد بدأت تكثر من القراءة فى الكتب الدينية ، حتى أصبحت لا تقرأ سواها .. وأنها تستغرق فى التفكير الصامت لفترات طويلة ويظهر على وجهها السهوم وعلامات انشغال الفكر بهم كبير ، إلى أن جاء يوم واصطحبتنى زوجتى إلى غرفتنا لأنها تريد أن تصارحنى بشىء مهم ثم أغلقت الباب

علينا وتوجهت إليها بسمعى وبصرى .. لأعرف ماذا يشغلها ..
فإذا بها تنظر إلى نظرة طويلة كسيفة ثم تغض بصرها وتقول لى
بنبرة كئيبة هذه العبارة القاتلة :

- فلان ، أريد أن أعترف لك بجرم كبير .. لقد أخطأت خلال
الشهور الماضية مع فلان !

وارتج على الأمر لحظات فلم أفهم ماذا تقصد أو خيل إلى
ذلك فسألتها عما تعنيه بقولها ذلك .. فأجابت بالعبارة التالية : كما
فهمت ! فخيل إلى أن زلزالا مدمرا قد ضرب الأرض كلها وهزها
هزا عنيفا من أركانها الأربعة ..

وبحثت عن صوتى فلم أجده .. وحين وجدته بعد لحظات
سألتها فى خوف وإشفاق وأنا أتمنى فى أعماق نفسى أن تكون
الاجابة بالنفى :

- هل ..؟ لكنها أجابت : نعم !.. وكررت السؤال ذاهلا من
جديد : هل...؟ وكررت هى الاجابة القاتلة بنفس الحروف
البغيضة نعم ، وأضافت إليها : وقد ندمت على ذلك وتبت إلى الله
فانظر ماذا تفعل !

ومادت الأرض بى من جديد ، ورأيت كل ما بنيت خلال رحلة
السنين وعشت من أجله ينهار أمامى ويتحول إلى حطام
وخراب .. بيتى .. وأسرتى .. وأقرب الناس إلى قلبى . ورأيت
أولادى فى هذه اللحظة بلا أم لهم بغير ذنب جنوه وعلا الطنين
فى أذنى :

لماذا ! لماذا فعلت بى وبأولادها ذلك !.. وكانت الاجابة المخيفة
أيضا أنه للأسف لأحقر سبب من الأسباب !..

ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أنهار عليها ضربا .. ولم تبد هى أية مقاومة أو اعتراض على ضربى لها .. وإنما تلقته صامتة .. ساكنة .. كأنما تريدنى أن أطهرها من إثمها بهذا الضرب العاجز ، ثم انهرت باكيا كالطفل الصغير وأنا أردد فى ذهول : أنت .. أنت ؟

لماذا .. لماذا ؟

وهى لا تتكلم ولا تجيب ولا ترفع عينيها فى وجهى ، وفى لحظة قدرية سوداء رأيت كل القصص والحكايات والنكات التى سمعتها وتبادلتها مع الأصدقاء مازحين عن المواقف المماثلة خلال رحلة العمر تنطبق على .. وليس « على الآخرين » وحدهم كما كنت أعتقد من قبل ، وتمنيت من قسوة الألم لو أنها كانت قد ماتت قبل أن يحدث ذلك ، أو لو أننى كنت قد مت قبل أن أعرفه ، ولم يعد يترأى لى فى مخيلتى أو يتردد فى سمعى طوال الفترة التالية سوى صوتها وهى تقول لى إنها لا تعرف كيف حدث ذلك ، وإن شيئا ما خاطئا قد حدث فى عقلها فأزاغه الكلام الحلو وتركتنى هى لنفسى لكى أنظر ماذا أفعل بعد أن فتحت على أبواب الجحيم على مصارعها .. وحاولت بكل ما أملك من طاقة وجهد أن أغفر وأصفح بلا جدوى .. وقرأت الكثير والكثير عن التوبة وشروطها .. والعفو الذى هو من شيم الكرام .. لكنى لم أستطع أبدا يا سيدى ولم أقدر ، وبعد فترة ليست طويلة من العذاب المرير طلقته وتقبلت هى الطلاق فى سكون قائلة لى إنها سوف تبحث فى نفسها عن الإنسنة الصالحة التى كانتها من قبل وتستعيدها بالقراءة فى الكتب الدينية أو بالعلاج النفسى إذا تطلب

الأمر ذلك . واضطربت حياتي وحياة أبنائي اضطرابا شديدا .
وعشت فترة من أسوأ فترات العمر دامت عاما ونصف عام ..
وكانت علاقتي بها خلالها حيادية وفي حدود علاقة زوجين
مطلقين بينهما أبناء يهتمهما أمرهم .

ولست خلال هذه الفترة صدق توبتها وعمق ندمها على
ما فعلت .. وكان سؤالها الصامت يتراءى لى دائما فى عينيها كلما
التقينا : هل صفحت ؟

وبعد عام ونصف عام من الانفصال أعدتها إلى عصمتى .
ورجعت هى شاكرة لى تعوض أبناءها عما فعلته بهم ، وبالرغم
من الألم الذى لم أبرأ منه أبدا منذ ذلك اليوم وسوف يدوم فى
اعتقادى إلى آخر لحظة فى عمرى فإننى لم أندم أبدا على هذا
القرار .

والآن وبعد ١٠ سنوات من هذا اليوم الأسود وجدت فى نفسى
القدرة على أن أروى لأحد حقيقة ما حدث لى فى تلك الأيام
البعيدة لى أطلع صاحبة رسالة « الأرض العطشى » على الجانب
الآخر لمثل هذه القصة التى قد تنجرف إليها .. وتتوهم أنها قد
تكون قصة عابرة بلا خسائر حقيقية وأيضا لى أسألها هل تقبل
لنفسها مثل هذا السقوط ؟ وأقول لها إنها إذا خطت خطوة أخرى
على هذا الطريق المنحدر ثم حاولت الرجوع منه .. فإن شيئا لن
يعود أبدا كما كان قبل ذلك ، وأنا الدليل الحى على ذلك فلقد مرت
عشر سنوات الآن ولم أبرأ بعد من ألم خيانة زوجتى لى بالرغم
من صدق توبتها وندمها عليها والتزامها الشديد بعد ذلك ، فهل
يستحق زوجها منها كل هذا الجحيم ؟ وهل يستحق شىء فى

الحياة كلها أن يؤلم أحد أحدا مثل هذا الإيلام الرهيب ؟ وهل يستحق شيء أن يحيل من أجله أى زوج أو أى زوجة حياة شريكه إلى عذاب كعذاب الجحيم لأمر عارض من عوارض الدنيا الزائلة ؟ إننى أريد أن أقول للجميع أن عليهم أن يحرصوا على شركائهم فى الحياة رجالا ونساء ، وأن يشعروهم عملا وقولا بالعاطفة ، وألا يركن أحد إلى الظن القديم بأن مثل هذه المصائب لا تحدث إلا للآخرين فقط .. كما كنت وغيرى نظن .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لو حاضرننا ألف محاضر عن عمق ما يشعر به الرجل من ألم مكتوم ومرارة حسيرة لخيانة شريكه حياته التى يحبها ويأمن إليها ويمضى فى الحياة مطمئنا إلى صدق أخلاصها له ، لما استطاع أن يشركنا معه فى بعض ما أشركتنا أنت فيه من مشاعر وأحاسيس صادقة ومؤلمة . ولا عجب فى ذلك يا صديقى لأنه ليس المعزى كالثاكل ..

« ولا يعرف الشوق إلا من به ألم » كما يقول الشاعر .
فإذا جاز لى أن أضيف إلى ما رويت شيئا فلعلنى أقول فقط إن عمق جرح الخيانة الذى لا يندمل فى نفس الرجل قد يماثله فى كثير من الأحيان عمق جرح الخيانة فى نفس المرأة المحبة لشريكها ، غير أنه قد يخفف منه بالنسبة لها أمران يتفقان مع فطرتها التى فطرها الله سبحانه وتعالى عليها .. الأول هو أن خيانة الرجل لها وإن أدمت قلبها ومشاعرها وهزت قيمها وثقتها فى نفسها ، فإنها لا تمس شرفها أو عرضها ، والثانى

أنها بطبيعتها الانثوية لا تستشعر غضاضة في أن تبوح بشكواها من خيانة شريك القلب أو الحياة لغيرها ، وإنما تبث نجواها وهمها وتفرج عن بخارها المكتوم في صدرها ، وتبذل الألم الجاف بالدمع .. فتتخفف من كثير من ضغوط الألم النفسية عليها فتمارس بذلك وظيفة الإفضاء النفسية وترشح جرحها المؤلم للشفاء بمعدل أسرع . أما الرجل فإنه للأسباب المفهومة يخجل غالبا من البوح بخيانة شريكة حياته له ويتكبد آلامها وحيدا وصامتا ويتحفظ أشد التحفظ في الحديث عن ذلك ، لأنه يتردد بين الشكوى منه وبين الخوف من فقد اعتباره لدى الآخرين إن هو فعل ذلك . فإذا كنت أنت قد بحت بألمك المكتوم مدفوعا برغبتك النبيلة في إعادة كتابة رسالة « الأرض العطشى » إلى الطريق القويم ، فلقد احتاج الأمر منك إلى عشر سنوات أو تزيد حتى استطعت - ومن وراء ستار - التنفيس عما يعتل في صدرك من الأحزان القديمة وجاءت كلماتك عنها مصهورة بنار الألم لتلفت انتباهنا إلى عمق الجرح وبطء الشفاء بالرغم من بعد الذكرى ، تماما كما عبر عن ذلك من قبل شكسبير العظيم على لسان عطيل حين ظن بزواجه الخيانة فانهار أمامها باكيا وهو البطل المغوار الذي خاض المعارك وجالده السيف وقال لها قبل أن يهمل بقتلها :

- أستطيع أن أتحمل بشجاعة كل شقاء الحياة من فقر ومرض وعار وحروب لكن خيانتك لي قد حطمتني تحطيمًا !
غير أنه من مواقف الحياة يا صديقي ما تدعونا ضرورة

مواصلة العيش إلى عدم السماح لها بإفساد أيامنا علينا طوال العمر ، وإلى أن ندرب أنفسنا على طرد ذكرياتها المؤلمة عن اذهاننا كلما تسلفت إلينا وكدرت علينا صفو الأيام ، ذلك أن اجترار المواقف المؤلمة والأفكار المحزنة القديمة .. إنما يؤدي بنا إلى تجدد عدائنا النفسي لرموزها وأبطالها الذين يتراءون لنا في الجوار أو يتحركون أمامنا وهم يظنون أننا قد صفحنا عنهم ونسينا لهم بالفعل ما كان من أمرهم معنا ، وإذا تجدد هذا العداء النفسي ولو للحظات فإنه لابد أن ينعكس سلبيا على تعاملنا معهم لفترة مؤقتة ويفسد علينا صفاء علاقتنا بهم .. ولقد قال أحد علماء النفس : إن الأفكار والخبرات والذكريات التي نعيشها تسجل على مواد بروتينية معقدة في الدوائر العصبية للمخ كما تسجل الأغاني على الأشرطة والأسطوانات ، وأن تكرار اجترارنا لهذه الأفكار والذكريات المؤلمة يؤدي إلى تثبيتها ونحن في أشد الأوقات حاجة لدواعي الصحة النفسية إلى نسيانها ، كما يؤدي أيضا إلى استثارة بعض ما يرتبط بهذه الذكريات من مواقف وخبرات مماثلة لها من الناحية الوجدانية ، ولهذا فلا بد من استخدام قوة العقل في طرد الأحزان القديمة والذكريات الأليمة السابقة ، كلما هاجمتنا .. أو تسربت من ثغرات الضعف النفسي إلينا لكي نعين أنفسنا على نسيانها وعدم التأثر بمؤثراتها السلبية في تعاملنا مع من لا مفر لنا من التعامل معهم من رموزها ، ولأنه لا عائد لنا من اجترارها سوى الضيق النفسي والاكتئاب والتعاسة وإحياء المراتب القديمة ،

وكنا قد ظننا أننا قد برئنا منها فضلا عن أن اجترارنا لها لن يغير من الأمر الواقع شيئا ولن يحقق لنا أبدا حلم البشرية العاجز في العودة بالزمن إلى الوراء ، لكي نتفادى الأخطاء التي وقعت في الزمن القديم ونتجنب آلامها .

وأنت يا سيدي قد اخترت عن وعي وإرادة الصفح والنسيان بعد ما لمستته من عمق الندم وصدق التوبة لدى شريكك .. وأعانك على ذلك بغير شك أنها قد اختارت الطريق الصعب الذي لا يقدر عليه غالبا إلا أولو العزم من الرجال والنساء .. فأرادت أن تتطهر من أثمها بمصارحتك به والاستبراء منه لديك ، وقد كان في مقدورها حتى لو كانت قد ندمت على خطيئتها وأقلعت عنها أن تكتم عنك أمرها فلا تعترف به أبدا إلى نهاية العمر ، لكنها أدركت من قراءاتها عن شروط التوبة الصحيحة أنه إذا كانت المعصية بين العبد وربّه فهي ثلاثة هي : أن يقلع عنها .. وأن يندم على فعلها وألا يرجع إليها أبدا ، فإذا كانت تتعلق إلى جانب ذلك بحق إنسان آخر فهي أربعة هي هذه الشروط الثلاثة مضافا إليها شرط رابع هو أن يبرأ من حق صاحبها لديه ، فأرادت هي أن يكون التطهر كاملا ، ولو تحملت تبعاته الجسام ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ﴾ صدق الله العظيم (النساء : ١٧) .

وهذا وحده يقطع بان الخيانة لم تكن طبعاً متصلاً فيها .. وإنما كانت خطأ جسيماً في حياتها سرعان ما ندمت عليه

ورضيت عن طيب خاطر بتحمل تبعات الاستبراء منه
ولو دفعت في سبيل ذلك الثمن غاليا من كل الجوانب ..
وها أنت تقول إنك بعد مرور عشر سنوات على هذه المحنة
فإنك لم تندم على قرارك بإعادتها إلى عصمتك .. وديننا
القويم يرشدنا إلى أنه من أدب المؤمن إذا صفح عن خطأ
المخطيء في حقه ألا يعيره وألا يذكره به من بعد توبته عنه ،
لكي يكون بذلك عوناً له على التزام الطريق القويم وليس
عونا للشيطان عليه فيرجع عنه ، وإذا كان هذا هو الحال مع
من ارتكب الخطأ .. فكيف يكون الأمر مع ضحيته حين
« يذكر » نفسه به كل حين .. ويجتر آلامه وذكرياته المحزنة
كأنما يجلد نفسه بخطأ غيره في حقه إلى ما لا نهاية !
إنني أضع رسالتك تحت أنظار كاتبة رسالة « الأرض
العطشى » وغيرها من القراء والقارئات .. لكي يستفيدوا
بخبرتها المؤلمة وبما تطلعنا عليه من تجربة إنسانية صادقة ،
وأحیی فيك نبل المقصد وصدق النية .. وشكرا .

كشف المستور!

أثارتني رسالتا « الزلزال المدمر » و « الأرض العطشى » من قبلها ودفعتني ذلك أن أكتب عن الطرف الثالث في هذه الثلاثية وهو العشيق .. ولكنني قبل أن أقص روايتي فإن لي تعليقا على ردكم الذي ترون فيه ضرورة مكاشفة الزوج كي تكون التوبة حقيقية والعقاب رادعا والتسامح فضلا .. وتعليقي مأخوذ عن فتوى قرأتها لفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر فى موقف مماثل وظروف مشابهة إذ هو يرى أن الاحتفاظ بالسر بعد التوبة الحقة ، هو الأمر المفضل ولكي يعانى مرتكب الذنب « الزوجة هنا » وحده آلام اثمه وجريسته فالكبت وعدم البوح هو عقاب فى حد ذاته - كما أشرت - وليس واجبا ، ولا عدلا أن يقاسى الطرف الآخر « الزوج » عذاب فجيعة فى اخلاص زوجته حتى وإن كان سببا غير مباشر فيما وصلت إليه الأمور ، أما قصتى فهى أننى كنت فى الثامنة والثلاثين من عمري عندما انتقلت إلى إدارة جديدة فى عملى تعرفت على الزملاء والزميلات فيها وسرعان ما أصبحت شقيقا لهم ولست مجرد زميل جديد وافد عليهم ، وظل هذا عهدى معهم حتى بعد قيام علاقة لى مع

أحدها هي السيدة التي تملك قلب الجميع نظرا لطبيعتها
الملائكية شكلا وموضوعا بأخلاقتها الرفيعة وإجادتها عملها وأدائه
على وجهه الأكمل من حيث الجدية والالتقان ، وللحق فإنني لم أبذل
أية محاولة مني للإيقاع بها وإنما كان هناك اهتمام زائد بها في
حدود الزمالة والشعور الأخوي وصل إلى رفع الكلفة بيننا فقامت
بإعطائي رقم تليفون منزلها وحدث تقارب روحي بيننا واتخذت
علاقتنا بعدا أكبر من نطاق العمل ، وخرجنا معا في أوقاتنا
الخاصة وتطورت العلاقة بيننا حتى أصبحت المعنى الكامل
لحياتي كما ظننت في ذلك الحين نظرا لفراغ حياتي من الناس
والعاطفة ولأن حبا كبيرا - كالذي تملكني - تجاهها لم أجده في
حياتي من قبل وربما للآن .. واستمرت علاقتنا خمس سنوات كنا
نلتقي خلالها مرة أو مرتين أسبوعيا وظلت العلاقة سرا لم يطلع
عليه أحد ولم ينكشف .. وذات يوم انقطعت عني هذه السيدة ..
وحاولت أن أعرف سر انقطاعها عني ، ثم أدركت أنها قد قررت
وضع حد لعلاقتنا وخطئنا المشترك الذي استمر طوال هذه
الفترة ، ولم تصارحني بذلك لكنني أدركته وقررت أن أساعدها
عليه ، وعلمت فيما بعد أنها لم تستطع الاستمرار في الازدواجية
التي كانت تمضي عليها حياتها خلال قصتنا معا ، وأنها قد
استراحت لهذه النهاية واستعادت سلامها النفسي ، والسؤال الآن
هو : هل كشف المستور الذي لم يشأ الله سبحانه وتعالى فضحه
كما قال فضيلة الإمام هو الأجدى .. أم البوح به .. وإطلاق
البركان الخامد ليصيب بحممه الأبرياء هو الأصح ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

عفوا فإنى لم أقل « بوجوب » مكاشفة الزوجة لزوجها بما كان من أمرها لكى تكون التوبة حقيقية .. وإنما فسرت فقط تصرف زوجة كاتب رسالة « الزلزال المدمر » واعترافها له بخيانتها بأنها قد رغبت فى أن تبرأ من حقه عليها لكى يستريح ضميرها .. وهذا هو اختيارها ولكل إنسان اختياره ، لكن هناك فرقا كبيرا بين رأى وبين التفسير والتحليل .. وردا على بعض التساؤلات المشابهة فإنى أورد هنا نص فتوى أخرى سابقة صدرت عن لجنة الفتوى بالأزهر ردا على تساؤل زوجة كان لها ماض قبل الزواج ورغبت فى أن تبوح به لزوجها ، تقول الفتوى وهى بعنوان : « أكرمها الله بالستر وتريد فضح نفسها » : إذا كانت الزوجة قد أخطأت قبل زواجها وهى فتاة فلا يصح أن تقص على زوجها سوءاتها فى ماضيها لأنه ينظر إليها على أنها ملاك طاهر وإذا ما أخبرته بماضيها القبيح ربما تغيرت نظرته إليها وربما كرهها وطلقها .. يقول الرسول ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل عملا بالليل وقد بات يستره ربه فيصبح فيقول للناس فعلت البارحة كذا وكذا » ..

وعلى هذا فإن على هذه السيدة أن تتوب إلى الله توبة صادقة وألا تخبر زوجها بماضيها المؤلم الذى يؤدى إلى طلاقها ، ولا يعتبر كتمان هذه الأمور السابقة للزواج خيانة للزوج ، لأن المعصية من الإنسان بينه وبين ربه فلا يصح أن يطلع عليها غير الله تعالى .

هذا هو نص الفتوى.. ولا تعليق لى عليها.. وأعتذر عن إغلاق باب الحديث فى هذا الموضوع لحساسيته المعروفة.. وشكرا .

العواصف الهوجاء!

أريد أن أروى لك قصتي مع الزمن والحياة .. فلقد تعرفت
بزوجتي فى حفل زفاف شقيقتي .. رأيتهما ولفت نظري إليها
جمالها واعتدادها الواضح بنفسها وتعارفنا ، وبعد فترة قصيرة
تمت خطبتنا ، وكنت وقتها مجنونا بالقوات المسلحة .. وانتهت فترة
تجنيدى وتزوجنا فلم يمض وقت قصير حتى بدأت الخلافات بيننا
على أتفه الأسباب واكتشفت أن ما ظننته اعتدادا بالنفس ليس فى
حقيقته سوى غرور شديد وتكبر أصيل فى شخصيتها ولا علاج
لهما ، وكان من أمثلة خلافاتنا التى تقيم زوجتى الدنيا ولا تقعدها
من أجلها أننى كنت بعد مغادرتى لبيتى فى طريقى إلى عملى ..
أختلس بضع دقائق أتوجه خلالها إلى مسكن أمى لرؤيتها
واحتماء فنجان من القهوة معها .. وكانت أمى تسعد بهذه الزيارة
القصيرة جدا لأننى أكبر أبنائها .. ولأنها تعيش وحيدة فى
مسكنها بعد رحيل أبى عن الحياة ومع ذلك فلقد كانت زوجتى
تستشيط غضبا لزيارتى لها ..

واضطرت لأن أتكتم هذه الزيارات عنها .. وأن أقوم بها فى
السر كأننى ارتكب فعلا شائنا ، ومع ذلك فقد كانت تعلم بها

وتتأثر على العواصف الهوجاء من أجلها ، ومضت الأيام بنا وأنجبنا طفلتنا الأولى واضطرت للعمل فى الخارج بضع سنوات لإسعاد أسرتي الصغيرة ، وحققت لزوجتى كل ما طلبته من أجهزة حديثة .. وأثاث جديد والانتقال إلى شقة أفضل وكتبت كل شىء باسمها لأدخل الطمأنينة إلى قلبها ، ومرت السنوات ورجعت من غربتى .. وأصبح عدد الأبناء ثلاثة وضاع معظم مدخرات سنوات الغربة فى شركات توظيف الأموال .. ولم يبق لى إلا دخل من وظيفتى بالقطاع العام ، وكبرت الابنة الكبرى وتخرجت فى كليتها وأصبحت شابة جميلة يتهافت عليها الخطاب ، وكانت زوجتى ترغب فى تزويجها فى أسرع وقت فتقدم إليها مهندس شاب وسعدت زوجتى به وتمت الخطبة ، لكنها ما إن تمت حتى بدأت تفتعل المشاكل معه لآتفه الأسباب .. حتى ضاق ذرعا بتكبرها وصلفها وانسحب ، ومن بعده تقدم لابنتى طيار شاب وتكررت معه نفس القصة بنفس تفاصيلها ثم تقدم لها بعد ذلك طبيب ولم يكن حظه مع زوجتى أفضل من سابقه فلقد سعدت به فى البداية ثم لم تلبث أن افتعلت معه المشاكل لكى تطفشه كما حدث مع الآخرين .

إلى أن جاء الخطيب الرابع عن طريق شقيقتى الصغرى .. وطارت به زوجتى فرحا لأنه ميسور الحال ماديا وصاحب شركة واهتمت به اهتماما شديدا وتوثقت العلاقة بينهما حتى شعرت أنا الأب ببعض الغيرة لحميمية علاقة خطيب ابنتى بزوجتى ، ومع ذلك فقد تعاليت على هذه الغيرة طلبا لمصلحة ابنتى .. وأملا فى ألا تسعى زوجتى إلى تطفيشه كما حدث مع الشبان الثلاثة

السابقين ، وأسعدنى أن لاحظت أن ابنتى قد أحبت هذا الخطيب وتمسكت به ، وتم عقد قرانهما ونحن فى قمة السعادة .. لكن عقد القران كان للأسف بداية النهاية لفترة العسل فى علاقة زوجتى بخطيب ابنتها فقد دبت الخلافات كالعادة بينهما لغير سبب جوهري ، وتمادت زوجتى كعادتها فى إهانتها عبر التليفون حتى أقسم الشاب ألا يدخل بيتنا مرة أخرى بعد هذه الإهانة ، وفشلت كل محاولتنا لإصلاح الحال بينهما بسبب تمسك كل منهما بأنه لم يخطئ ورفضه الاعتذار للآخر ، وفعل التكبر والغرور اللذان يحكمان شخصية زوجتى فعلهما فتحولت مشاعرها تجاه الخطيب الذى كانت تطير به فرحا إلى كراهية شديدة ، وحاولت تدمير علاقته بابنتى ومنعتها من لقائه أو الاتصال به ولو عن طريق التليفون ، ورفضت ابنتى أن تستسلم هذه المرة لرغبة أمها فى تدمير علاقتها بخطيبها الرابع فنشبت الخلافات الحادة بينها وبين أمها .. واستمرت الخلافات دون بادرة أمل فى تقارب وجهات النظر ووصلت إلى حد الضرب والإهانة من جانب الأم لابنتها ، واستقطبت زوجتى ابنتها التى تكرر صورة أمها فى طباعها وأخلاقها إلى جانبها فانضمت إليها ضد شقيقتها .. ووقفت أنا بجوار الجانب الضعيف فى الخلاف وهو ابنتى ، ورأيت حسما للنزاع الفصل بينها ، وبين أمها بعض الوقت فاصطحبتها للإقامة لدى خالها حتى تهدأ النفوس . وأقامت ابنتى فى هذا « المنفى » لمدة شهر ثم شعرت بالحنين إلى أمها فرجعت إلى بيتها وعدت أنا ذات يوم إلى البيت ووجدتها فيه تتحدث مع أمها فسعدت بذلك وأملت خيرا ورحبت بابنتى فقلت لها إنها قد أنارت بيتها بعودتها

إليه .. فإذا بزوجتي تقول لى أمامها فى جفاء إنها مجرد « ضيفة » وسوف تعود من حيث أتت ، وامتقع وجه ابنتى حين سمعت ذلك .. وغضبت أنا وقلت لزوجتى أن ابنتى لن تخرج من بيتى .. فإذا بها تجيبنى بأنها لن تخرج منه وحدها وإنما وأنا أيضا معها ! ونشبت بيننا مشاجرة عنيفة انتهت بخروجى أنا وابنتى من البيت ، وإقامتنا لدى حماتى على أمل أن تنقشع الغمة وتستعيد زوجتى رشدها .. لكن هيهات أن يحدث ذلك فلقد طالت ضيافتى أنا وابنتى لدى جدتها ستة أشهر كاملة .. وانتهى خطيبها خلال هذه الفترة من إعداد عش الزوجية ، وتحدد يوم الزفاف فى نوفمبر الماضى .. لكن زوجتى كانت تغلى بالغضب لذلك وتقسم بأنها سوف تحرم ابنتها وخطيبها من فرحتهما فى هذا اليوم ، وقبل أسبوع واحد من موعد الزفاف توجهت زوجتى مع شقيقها إلى بيت والدتهما حيث تقيم ابنتى ، واصطحبها بالقوة وهى بقميص نومها إلى سيارة الخال وسط توسلات الجيران لهما أن يرحماها ويدعاهما لشأنها وأركبها سيارة الخال بالضرب والاهانة وعادا بها إلى مسكن الأم ، وهناك انهالت عليها الأم ضربا بخرطوم المياه وهى تتوعدها بأنها ستشعل فيها النار وهى نائمة لكيلا تتزوج « الواد بقاعها » هذا !

وعلمت بما حدث وأنا فى عملى فغضبت غضبا شديدا وتوجهت إلى منزلى وأنا أحمل السلاح لأدافع به عن ابنتى ، فمنعنى الجيران من الصعود إلى مسكنى وقالوا لى إن المسكن خال من سكانه والجميع الآن فى المستشفى القريب لأن ابنتى قد سقطت من شرفة الدور الرابع الذى نقيم به ! وطار صوابى حين سمعت

ذلك وتوجهت للمستشفى فوجدت ابنتى فى حالة خطيرة والدماء تنزف منها ، فما أن رأتنى حتى بكت وقبلت يدى وهى تطلب منى أن آخذ لها بحقها ممن آذوها ثم راحت فى غيبوبة وتم نقل ابنتى إلى مستشفى آخر خاص وتبين أنها أصيبت بكسر فى الحوض والكوع وقصبة الساق والكاحل ، كما أصيبت أيضا بتفتيت فى الطحال من شدة الضرب ، وأمام وكيل النيابة قالت ابنتى إنها ألفت بنفسها من الدور الرابع .. لكى تنقذ أمها من أية مسئولية ولم تشر إلى مسئولية أمها وخالتها عن دفعها إلى ذلك بما ارتكبه معها من ضرب وإهانة .. والآن فقد أنعم الله بالشفاء على ابنتى من الاصابات التى لحقت بها .. ونحن نستعد الآن لإتمام زفافها إلى عريسها الشهم ذى الأصل النبيل ، الذى تألم غاية الألم لما تعرضت له خطيبته من إيذاء لتمسكها به ووقف إلى جوارها فى محنتها وأقسم أن يعوضها عن كل ما لقيت من أجله من أذى واضطهاد ..

وإنى لأكتب لك هذه الرسالة لكى تكون عبرة لبعض الأمهات المتكبرات المستبدات بأبنائهن لكى يعرفن أن القسوة والغرور والتكبر لا تفيد ولا عائد لها إلا خروج الأبناء على طاعتهم بعد أن يعجزوا عن استمرار الاحتمال إلى النهاية وأحسب أنك تشاركنى رأى فى ذلك .. والسلام ..

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من المؤسف حقا أن تتدهور العلاقة الإنسانية بين أم وابنتها إلى هذا الحضيض الذى تحاول معه الأم فرض إرادتها على الابنة بالقهر النفسى والإيذاء البدنى حتى لتضطر الفتاة

إلى إلقاء نفسها من شرفة بيتها تخلصا من هذا الإيلام .
نعم من المؤسف حقا أن تتدهور العلاقة بينهما إلى هذا
الدرك ، ويضاعف من الأسف أن أسبابه ليست أسبابا نبيلة
تتعلق برؤية الأم لما فيه خير ابنتها ومصلحتها وإشفاقها
عليها من الارتباط برجل ترى أنه لن يكون الشخص الأمين
الذى يرعاها ويحفظ أمانتها ويحقق لها سعادتها .. وإنما
ترجع أسباب هذا التدهور لاعتبارات أنانية تتعلق بالأم
نفسها .. وما تراه هي ماسا بكرامتها من وجهة نظرها ، وهو
رفض هذا الخطيب الاعتذار لها عما لا يرى نفسه مخطئا فيه .
فإذا كنا لا نعرف الكثير عن شخصية هذا الخطيب لكى
نحكم له أو عليه ، فإن ما تقوله أنت عن زوجتك يرجح - إذا
كان صادقا - أن تكون هي المسئولة عن الجانب الأعظم من
أسباب سوء العلاقة بينهما ، استطرادا لصلفها وغرورها
ورغبتها الظاهرة فى تطويع الجميع لإرادتها ، واستطرادا
أيضا « لتاريخها » مع الخطاب السابقين الذين ترحب بهم فى
البداية ثم لا تلبث أن تنقلب عليهم .

والإنسان « تاريخ » وليس موقفا عابرا نحكم به عليه ،
وتاريخ زوجتك مع خطاب ابنتها السابقين يرجح للأسف أن
تكون هي المسئولة هذه المرة أيضا عن تدمير علاقتها
بالخطيب الأخير ، ونحن لا نستريح بالفعل لسوء العلاقة
بين الأم وخطيب ابنتها ، أيا كان الجانب الذى يتحمل
المسئولية عن تدهورها ، لما لذلك من آثار سلبية تنعكس
بالضرورة على علاقة الخطيبين ثم الزوجين فى المستقبل ،

ونطلب دائماً من الخطيب أن يحرص على إقامة علاقة طبيعية حميمة وعادلة مع أم فتاته لكي تكون عوناً له في حياته المستقبلية وليس العكس . لكن ذلك لا يعنى على الناحية الأخرى أن يقبل أى خطيب بإهانات الأم له ، أو بمحاولتها قهر إرادته وضمه إلى شبكة الخاضعين لإرادتها وتكبرها وغرورها ، وإلا تنمرت الأم له وانتقلت عليه ودمرت علاقته بابنتها ، ذلك أن لكل إنسان كرامته الشخصية التي يحق له ألا يفرط فيها أو يقبل عليها ما لا يقبله الحر لنفسه حتى ولو كان عاشقاً متيماً للابنة . والحق أن التكبر والعناد وصلابة الرأي .. وتوهم احتكار الحق دون الجميع هي الآفة الأساسية التي صنعت هذه المشكلة منذ البداية بين الأم وخطيب ابنتها ثم بينها وبين ابنتها فيما بعد ، ولقد كنت أحرار أحياناً في فهم سر هذا التلازم الدائم بين التكبر وبين العناد وصلابة الرأي والتمسك به إلى النهاية حتى ولو أدى بصاحبه وبالجميع إلى الخراب إلى أن قرأت ذات يوم نصيحة الإمام محمد الباقر لابنه الإمام جعفر الصادق وهو يحذره من الكبر فيقول له : ما دخل قلب امرئ شئ من التكبر إلا نقص من عقله بمثل ما دخله !

فالتكبر بهذا المفهوم نقصان في العقل والحكمة والقدرة على الاستيعاب السليم للأمر . وعلى الناحية الأخرى فإن التواضع والمرونة والاستعداد للاقتناع بما في آراء الآخرين من حكمة وصواب هو في واقع الأمر إضافة إلى العقل وإطلاق لقدراته على أن يعين الإنسان على تجنب المشاكل التي لا مبرر لها مع الآخرين .

ولقد ساهم في تصاعد الأمور بين زوجتك وخطيب ابنتها ، أن خطيب ابنتك يتسم في تصوري بشيء من الاعتداد بالنفس يستمده غالبا من اعتزازه بأوضاعه المالية الميسورة .. أو ربما يكون سمة أصيلة في شخصيته منذ البداية ، ولهذا فلقد بدأت العلاقة بينهما حميمة ووثيقة في البداية وخلال فترة المجاملات والتنازلات البسيطة بين الطرفين طلبا لقبول الطرف الآخر .. ثم لم تلبث شخصية كل منهما أن عبرت عن نفسها بوضوح بعد التآلف والاعتیاد ، فكان الصدام وتطاول زوجتك عليه بالاهانة ورغبتها في فرض إرادتها عليه كما تفرضها على الجميع ، ولم يجد الرجل في نفسه ما يدفعه إلى قبول الإهانة والتسلط فاستمسك بعدم الاعتذار إليها واستمسكت زوجتك بعدم الاعتذار إليه لأن الحق دائما حكر عليها وفي جانبها على الدوام كما تؤمن هي ، فكان الابتعاد ، وضاعف من التصاعد أن ابنتها قد خرجت هذه المرة على إرادتها ورغبت في استكمال مشروع الارتباط به حتى ولو لم يعتذر لأُمها .. وأيدتها أنت في ذلك بعد أن خشيت على مستقبل ابنتك من رهن سعادتها وزواجها برؤية زوجتك وحدها للأمور ، فحلت الكراهية الشديدة لخطيب الابنة في قلب أمها محل الترحيب به والعلاقة الحميمة معه في البداية ، ولا عجب في ذلك وجمال الدين الأفغانى يقول لنا : إن « الأكفاء في الزمن الواحد والمكان الواحد لا يكونون غالبا أصدقاء » ! وزوجتك وخطيب ابنتها كفئان إلى حد ما في الاعتداد بالنفس ، وإن كان ذلك مضاعفا في شخصية زوجتك

كما تروى عنها .. غير أن ذلك كله لا يبرر أبدا أن تشن زوجتك هذه الحرب الضارية ضد ابنتها لمنع زواجها من خطيب طارت هي نفسها فرحا به في البداية ولا يبرر أبدا إيذاءها لابنتها معنويا وبدنيا وطردها من رحمتها لكي تتزوج من تقدم إليها في بيت أسرتها وهي وحيدة ومنبوذة من أمها وبعض أهلها لغير سبب سوى العناد والتكبر وصلابة الرأي والتمسك به إلى ما لا نهاية ..

وإذا كان الأمر كذلك أفلا من سبيل لتقريب وجهات النظر بين هذه الأم وهذا الخطيب حتى ولو تنازل أحدهما أو كلاهما بعض الشيء عن اعتزازه بنفسه لكيلا يحرما هذه الفتاة من حقها العادل في أن تتزوج تحت أنظار أبويها .. وبغير أن يكرر عليها بعض سعادتها إحساسها بالوحدة والنبذ من جانب هذه الأم العنيدة ؟

الخطبة الجهنمية !

أنا شاب فى الثامنة والعشرين من عمري .. أتابع باهتمام بريد الجمعة واستطيع أن أقول إن ما يقرب من ٨٠٪ من خبرتى بالحياة قد اكتسبتها منه ، ولهذا فإننى ألجأ إليك لألتمس منك الرأى والمشورة فى مشكلتى التى أقف أمامها حائرا الآن . فلقد بدأت القصة منذ أكثر من عام حين تعرفت بسيدة متزوجة تكبرنى بثمانى سنوات ولها ابنة عمرها ١٧ عاما ، ثم توثقت صلتى بها سريعا لظروف غياب زوجها المتكرر حيث يضطره عمله للسفر لفترات طويلة ، فأصبحنا نتحدث فى التليفون لساعات طويلة ونلتقى فى الأماكن العامة ونتبادل أحاديث الحب والهيام ، كما بدأت أزورها فى بيتها عند سفر زوجها ، وتكررت هذه الزيارات إلى أن تخطينا كل الخطوط الحمراء وأصبحت علاقتى بها « كاملة » .. واستمر الحال على هذا النحو بضعة شهور .. لم يعد لكل منا خلالها شاغل سوى الآخر ، وأصبحت أزورها فى بيتها كلما سافر زوجها وخلا البيت عليها فى غياب أبنائها فى مدارسهم وتزورنى هى من حين لآخر فى بيتى الذى أقيم فيه وحيدا بعد زواج كل إخوتى ورحيل أبى وأمى منذ سنوات .

إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تعرض على خطة جهنمية ،
تضمن لنا - كما قالت - استمرار علاقتنا بلا متاعب إلى أبعد مدى ،
وتجنبنا شكوك الآخرين في أسباب زياراتي المتكررة لها في بيتها
أو زياراتها لى .. أما هذه الخطة فهي أن ارتبط بابنتها ظاهريا ..
وأن تشجعها هي على قبول الخطبة من ناحية المبدأ فتتسع أمامنا
الفرصة للاستمرار في علاقتنا الخاصة بلا مشاكل لعدة سنوات
لأنها مازالت طالبة بالمرحلة الثانوية .. وقد تنضج الفتاة خلال هذه
السنوات وتتجه مشاعرها لزميل لها في الجامعة مثلا أو تكتشف
أننى لست فتى أحلامها فتعذر عن عدم إتمام الخطبة والزواج
فأتحلل من مشروع الارتباط بها ونفوز نحن - أنا وأمها - ببضع
سنوات من العلاقة الحميمة بلا متاعب أو ظنون .. فإذا حدث
العكس وتعلقت بى الفتاة ورغبت في استكمال المشوار معى إلى
نهايته فليس ثمة ما يمنع من ذلك ، على أن تتوقف علاقتى
بوالدتها عند هذا الحد وتقوم بيننا علاقة المصاهرة ! إننى أعرف
أنك تريد الآن أن تمزق هذه الرسالة وتلقى بها فى سلة المهملات
وأنت تلعننى لكنى أناشذك أن تستمر فى قراءتها حتى النهاية
لعلك تجد فى خاتمتها ما يخفف بعض غضبك على ..

لقد ألحت على شريكى بهذه الخطة .. وفكرت فيها بعض
الوقت فلم أر مانعا من تنفيذها ، وكلفتها بأن تمهد لى الطريق
ففعلت ، وحدثت ابنتها عنى ، وشجعتها على الترحيب بى ،
وانتظرنا مجيء أبيها من رحلة عمل له .. وتقدمت إليه طالبا يد
ابنته .. فتردد فى البداية فى القبول بسبب صغر سن ابنته .. لكن
شريكى نجحت فى إزالة ترددده ، وأيدت فكرة الارتباط المبكر

لابنتها بشاب « ممتاز » مثلى لكى يحميها هذا الارتباط من الإغراءات الكثيرة التى تحيط بها نظرا لجمالها الملحوظ وغياب الأب معظم الأوقات .. وذكّرت زوجها بأنه قد خطبها وعمرها ١٧ عاما مثل ابنتها وتزوجها وعمرها ١٨ عاما .. فاقتنع الرجل بذلك وأعلن موافقته بعد أن لمس من ابنته ترحيبها بهذا الارتباط .

وبالفعل تمت قراءة الفاتحة ثم الخطبة وأصبحت أتردد على بيت شريكتى بلا حرج ، وازدادت فرص اللقاء بيننا كثيرا وأصبح اتصالنا التليفونى بالساعات أمرا علنيا أبدؤه بالحديث مع الفتاة لبعض الوقت ثم تأخذ الأم السماع وتحدث معى بحريتها وتدعونى للحضور أو تطلب منى مقابلتها لشراء شئ فى وسط المدينة.. إلخ . ولم ألحظ أى شك من الفتاة فى طبيعة علاقتى بأمها .. ولاحظت على العكس من ذلك أنها سعيدة بى وبالمودة التى تجمع بينى وبين أمها وإخوتها وسعدت بذلك فى البداية وشعرت بأن كل شئ يمضى كما هو مخطط له تماما ، لكنى بدأت أشعر فجأة بالذنب تجاه هذه الفتاة البريئة التى اشترك أنا وأمها فى خداعها وبالندم على ما تورطت فيه معها ومع أمها على السواء ، وبدلا من أن يستمر ابتهاجى بنجاح الخطة وجدت نفسى أشعر بالخوف الشديد مما سيحقيق بى من غضب ربى لما فعلت وتدهورت إليه من علاقة آثمة مع شريكتى .. وبدأت الهواجس تلاحقنى وتفسد على أوقاتى واعترانى الضيق والاكتئاب ولاحظت أننى لم أعد أشعر بالمتعة التى كنت أشعر بها مع والدتها من قبل .. وإنما بالألم والضيق والذنب ، كما لاحظت أيضا أنها قد أصبحت مهمومة معظم أوقاتها ولم تعد سعيدة ومبتهجة دائما

معى كما كانت من قبل ونهضت من نومى ذات ليلة مفزوعا وأنا أشعر كأن أحدا يخنقنى ، فاستقر عزمى بعد تفكير طويل على أمر .. وتوجهت للقاء شريكى وصارحتها بندمى على ما وصلنا إليه معا ففوجئت بها تقول لى أنها تشعر هى الأخرى بنفس هذا الندم و تريد أن تفتحنى فى ضرورة التوقف عن الاستمرار فى الخطأ لأنها لم تعد قادرة على مواصلته ولا سعيده به .. واسترحت كثيرا حين سمعت منها ذلك واتفقنا على وقف اللقاءات الخاصة بيننا والاستمرار فى العلاقة العائلية التى تجمعنا بصفتى خطيبا لابنتها وبصفتها أما لخطيبتى والتزمنا بهذا القرار وبدأ كل منا يصلى ويستغفر الله كثيرا ويندم على ما بدر منه ، واستمرت صلتى العلنية بأسرة خطيبتى كما كانت من قبل وأصبحت أدخل بيت الأسرة وقد تحررت لأول مرة من الاحساس بالإثم والخداع ، وأصبحت شريكى السابقة تقابلنى بود واحترام ولا تتطرق إلى أى أحاديث خاصة بنا لكن هاجسا جديدا بدأ يؤرقنى وهو هل يحل لى الزواج من هذه الفتاة بعد خطئى مع أمها أم لا .. وتخرجت من أن أسأل أحدا فى ذلك خوفا من أن يكتشف الحقيقة وتوجهت إلى دار الافتاء بسؤال مكتوب عن جواز ارتباط شاب بفتاة سبق له أن أخطأ مع أمها وتوقف عن الخطأ فجاءنى الجواب بأن الإمام أحمد بن حنبل قد حرم مثل هذا الزواج فى حين أباحه الأئمة الثلاثة الآخرون وأخذت بالرأى الأخير ومضيت فى مشروع الزواج .. وبدأنا نتحدث عن تحديد موعد قريب لعقد القران .. لكنى وجدتنى بالرغم من ذلك حائرا ومترددا ولا أعرف ماذا ينبغى لى أن أفعل .. وهل أرتبط بهذه الفتاة للنهاية

وأتزوجها .. أم ابتعد عن هذه الأسرة كلها خاصة أن أمها كانت قد عرضت على حتى بعد توقف العلاقة الخاصة بيننا أن تحصل من زوجها على الطلاق وتتزوجني إذا رغبت أنا في ذلك ، لكنني رفضت هذا الاقتراح بشدة لكيلا أهدم أسرتها وافرق أبناءها الذين ينعمون بحياة عائلية طبيعية بالرغم من كل ما حدث .

إنني أعرف أنني لست موضع احترامك الآن بالمرّة لكنني أثق أنك لن تبخل عليّ بالرغم من ذلك بالرأي السديد والمشورة ولعله يخفف من حنقك عليّ أن تعلم أن ما وصلت إليه من تقويم هذه السيدة يستحق الاحترام بالفعل ، فلقد أصبحت تصلي وترتدي الملابس الطويلة والمحتشمة وتغطي شعرها ولا تتحدث مع أحد إطلاقاً ، ونفس الشيء حدث أيضاً للفتاة التي كانت على وشك أن تتخذ نفس اتجاه الأم قبل ارتباطها بها فعدّلت مسار تفكيرها وأصبحت ملتزمة ومحتشمة تماماً .

والآن بماذا تنصحنى أن أفعل .. يا سيدي ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لست أريد أن أخوض في نهر الفقه العميق لكي أناقش صحة ما أوردته في رسالتك من موقف الأئمة الأربعة الأجلاء من مثل هذا الزواج المحاط بالشكوك والريب .. لكنني أقول لك فقط أنك قد أخطأت في النقل عن فتوى دار الإفتاء فيما قلته عن مواقفهم منه فلقد رجعت إلى الفتوى رقم ١١٦٤ من فتاوى دار الإفتاء المصرية والصادرة في عهد الإمام الراحل الشيخ جاد الحق على جاد الحق يرحمه الله حين كان مفتياً

للجمهورية ، فوجدت الفتوى في مسألة مشابهة تشير إلى أنه ليس ابن حنبل وحده رضى الله عنه هو الذى يحرم مثل هذا الزواج .. وإنما يحرمه أيضا فقهاء المذهب الحنفى والثورى والأوزاعى ، حيث يثبتون لارتكاب الخطيئة مع الأم ما يحرم بالمصاهرة ويقولون أن من ارتكبها مع امرأة فقد حرمت عليه أمها وابنتها وجدتها وحرمت هي على أبيه وأجداده وإن علوا وعلى أبنائه وإن نزلوا ، في حين أجازوه فقهاء الشافعية والمالكية على كراهته اعتمادا على أنه لا يعتبر فى التحريم بالمصاهرة إلا النكاح الحلال الذى لا شبهة فيه ، فإذا لم يكن كذلك لم تقع به حرمة المصاهرة ولكن يكره مثل هذا النكاح ولا يندب إليه أى لا يكون مفضلا ، وبغض النظر عن اختلاف الأئمة الأجلاء فى هذا الأمر وكل مصيب كما يقولون فإنى أسألك عما يغريك بفتاة صغيرة لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها لكى تسمى للارتباط بها وقد أخطأت من قبل مع أمها .. ولم تكن خطبتك لها من البداية سوى جزء من خطة جهنمية شائنة للتعمية على علاقتك الآثمة بوالدتها ؟

ولماذا تصر على مخالفة أحكام العقل والأخلاق باستمرار وجودك فى حياة هذه الفتاة الضحية والظروف المعقدة المحيطة بها قد تنذر باحتمال تجدد العلاقة بينك وبين أمها فى أى مرحلة من العمر ، بدليل عرضها عليك حتى بعد خطبتك لابنتها وتوقف العلاقة الآثمة بينكما أن تحصل على الطلاق من زوجها وتزوجك ؟

ألا يعنى ذلك أن القصة المؤسفة لم تنته كل فصولها بعد ..

وإن استمرار وجودك بالقرب من هذه السيدة قد يحمل لك نذر تجدها في أى لحظة ؟

إن الإنسان ضعيف بطبعه أمام الإغراءات .. والمثيرات ونداءات الغريزة والمغامرة .. وسوابك الأخلاقية لا توحى بأن استشعارك للندم أو استشعار شريكك له قد يكون كافيا الآن أو في المستقبل القريب لحماية كل منكما من ضعفه تجاه الآخر إلى ما لا نهاية ..

فلماذا إذن تضع نفسك وتضع هذه السيدة موضع اختبار قد يدوم طوال ارتباطك بابنتها ؟ ولماذا لا تنجو بنفسك من حقل الألغام الذى دخلته بقدميك فتحمل هذه الفتاة الصغيرة مما ترشحها له أنت وأنها من عذاب كعذاب الأساطير الإغريقية حين تكتشف ذات يوم ما كان من أمرها معا .. أو ما سوف يستجد منه فى قادم الأيام ؟

ولماذا أيضا لا تعين هذه السيدة على نفسها بالخروج نهائيا من حياتها ، وكفاك وكفاها إنما ما كان من أمرها معا .. وما كان من أمرها معا مع هذه الفتاة التى ارتضت لها أمها - لا سامحها الله - أن تتخذها ستارا خادعا لعلاقاتها بك ، حتى ولو أدى ذلك إلى استغلالها هذا الاستغلال الدنىء واللعب بعواطفها الغضة بغير شفقة لحساب أهوائها ونزواتها ؟ يا إلهى !! إن من الحيوانات الثديية من قد لا ترضى لفلذات أكبادها بهذا الاستغلال الدنىء ، فكيف يرضى به بعض البشر لثمرات قلوبهم ؟ إننى لن أحدثك عن الحلال والحرام لأنك تعرف جيدا كل ما يمكن أن يقال فى ذلك

ولكنى سأقول لك فقط إنه حتى فى الخطأ ، فإن من الأخطاء ما قد يخفف من بعض وزره إنه قد يراعى بعض القوانين الأخلاقية دون بعضها فلا يضاعف مرتكبه من جرمه باستغلال الآخرين أسوأ استغلال ولا يقترب فى خطئه بالأذى ممن يأمنون إليه ويعتمدون عليه ويثقون فى إخلاص نياته تجاههم ، ومن الخطأ كذلك ما لا يراعى فيه مرتكبه أى قانون أخلاقى أو حرمة لشيء أو شفاعاة لصلة رحم أو قرابة ، فكأنما لا يرى فيما يفعل إلا نفسه ورغباته وأهواءه مهما ترتب عليها من إيلاء وإيذاء للآخرين . وخطأ هذه السيدة فى حق ابنتها بوضعك فى طريقها لكى تكون ستارا شائنا لعلاقتها الآثمة بك هو من هذا النوع الأخير الذى يضيف إلى جرم الخطيئة ، خسة خداع أقرب الناس إليها وأحقهم عليها بالحماية من مثل هذا الخداع ولو ضحت هى فى سبيل ذلك بكل أهداف الحياة .

ولقد قلت مرارا إن الضمير الأخلاقى قد لا يمنعنا فى بعض الأحيان من ارتكاب الخطايا .. لكنه يحرمنا بكل تأكيد من الاستمتاع بها ، وما حدث لك ولهذه السيدة بعد تورطكما فى خداع هذه الابنة .. ونجاح خطتكما الجهنمية فى إضفاء الصيغة الملائمة على وجودك فى حياة هذه الأسرة يؤكد ذلك غير أننى أصارحك بأننى لا أطمئن كثيرا إلى الاعتماد على هذا الوازع الأخلاقى فى علاقتك بهذه السيدة .. إذا استمرت صلتك بابنتها وتطورت إلى الزواج .. كما أننى لا أرشح مثل هذا الزواج الذى أحسب أنك تتلمس الآن الذرائع للنكوص عنه ، للنجاح والاستمرار بلا مشاكل محزنة .. وأسبابى لذلك هى

أنك حتى ولو نجحت فى الاستمرار فى مقاومة نداء تجديد العلاقة بينك وبين هذه السيدة ، فإنك لن تنجو غالباً من مؤثرات هذه العلاقة السابقة عليك ورواسبها الأخلاقية فى أعماقك فى علاقتك بهذه الفتاة فى المستقبل ..

فلا شك أنك رغم « اعتزازك » بما تقول إنك قد نجحت فيه من « تقويم » هذه السيدة ، وتعديل مسار تفكير ابنتها التى كادت تمضى على درب أمها لولا جهدك المشكور فى تقويمها ! أقول إنك لا شك لا تخلص فى أعماقك من بعض عدم الاطمئنان إلى نوعية القيم الأخلاقية السائدة فى الوسط العائلى لهذه السيدة وابنتها ، وإنك لن تخلص فيما أتصور من بعض الهواجس والظنون فى أن تكون لهذه القيم المتساهلة بعض الأثر على التزامها وسلوكها فى المستقبل .. وحتى ولو كانت فتاة طيبة ولا غبار على أخلاقياتها فإنك قد تظلمها بهواجسك وشكوكك ورواسب علاقتك السابقة بأمها .. وتساؤلاتك عما إذا كان لسوابق أمها معك من أثر على نظرتها للحياة وأخلاقياتها فى المستقبل .. فلماذا لا تحميها من كل ذلك .. وتدعها لشأنها .. ولها من جمالها وصغر سنها ما قد يرشحها للارتباط بمن لا ينطوى لها على شىء من مثل هذه الهواجس والظنون ! ولماذا لا تباعد أنت عن البوتقة التى تضطرم فيها نيران الشكوك .. واحتمالات تجديد العلاقة الآثمة مع الأم .. واحتمال اطلاع الابنة على علاقتك بأمها .. واحتمال انفجار الموقف كله بفضيحة مدوية وانهيار أسرة بأكملها وتبدأ حياة جديدة ونظيفة وخالية من كل الشوائب مع فتاة لا تربطك

بأسرتها مثل هذه الروابط المركبة والمعقدة .
إننى لا أظن أن هذه الفتاة سوف تخسر الشيء الكثير
بفقدائها لك .. بل لعلنى أقول أنها ستربح نفسها وسعادتها فى
المستقبل إذا نجت من الارتباط بك ومن هذا الزواج الذى يحمل
فى ثناياه من عوامل الفشل والقلق والاضطراب أكثر مما
يحمل من عوامل النجاح والاستقرار والأمان .
ولقد ركزت حديثى كله على هذه الفتاة باعتبارها الضحية
الأولى للخداع البشع والخطط الجهنمية الآثمة من جانب
أمها .. وجانبك ، أما الضحية الأخرى لهذه القصة وهى والدها
فحسابكما عنه مع خالقكما ، لكن أبسط ما تستطيع أن تقدمه
له الآن إذا كان مازال لصوت الضمير من أثر عليك هو أن
تختفى من حياة ابنته وأسرته وعائلته .. عسى أن يرشحك
ذلك مع صدق الندم وصحة العزم للتطهر مما جنيته عليه من
قبل ..

ابتسامة الهزيمة!

كنت فيما مضى أستبعد أن يجيء يوم أحتاج فيه إلى الكتابة إليك .. لكن أحداث الأيام لا تدع أحدا في طريقه فلقد تعرضت لتجربة شخصية دفعتني لأن أكتب لك عنها مستشيرا ومحذرا ، فأنا مهندس أبلغ من العمر ٤٥ عاما ، تزوجت منذ ١٥ عاما من فتاة كانت وقتها طالبة بالسنة الثالثة الجامعية .. وفي قمة التدين والأخلاق ، وقد تخرجت زوجتي في كليتها ونحن معا ، وعملت مدرسة بأحد المعاهد .. ومضت حياتنا هادئة وأنجبنا خلال رحلتنا مع الحياة ثلاثة أبناء صغار ملأوا حياتنا بهجة وسعادة ، ثم حدث ذات يوم أن زرت زوجتي في مقر عملها فعرفتني بزميل لها رحب بي بحرارة .. ورحبت به .. وبعد أيام أبلغتني زوجتي أن زميلها هذا يرغب في زيارتنا في بيتنا مع أسرته ، وجاء الرجل مع زوجته وأطفاله الذين يماثلون أولادي في السن تقريبا .. وأمضينا معا وقتا طيبا ، ولاحظت من الوهلة الأولى أن زوجته تفوق زوجتي جمالا ثم دعينا بعد ذلك لزيارة هذا الزميل في بيته ، وتكررت الزيارات العائلية بيننا كثيرا ثم انتقلت من الحى الذى أقمت فيه معظم سنوات عمرى ، إلى حى جديد بعيد نسبيا عن

الحى السابق ، فلاحظت أن هذا الزميل قد بدأ يزورنا فى بيتنا منفردا دون اصطحاب زوجته معه ويمضى معنا وقتا طويلا ، وتكررت الزيارات المنفردة من جانبه بشكل مكثف ، حتى بدأت أتساءل عن سر هذه الزيارات الكثيرة المنتظمة دون حضور زوجته معه ، وأفضيت لزوجتى بتساؤلاتى هذه فنهرتنى بشدة ، ودافعت بحرارة عن هذا الزميل ووصفته بأنه صديق مخلص وشريف ويحترم حقوق الصداقة ، ولم يقتنع عقى تماما بدفاع زوجتى ، لكن الأمور مضت بعد ذلك فى نفس الطريق ، ثم حدثت بعض المشاكل العادية بيننا فلاحظت أن رد فعل زوجتى تجاهها قد أصبح حادا وجافا .. ولاحت لى فرصة للعمل فى الخارج لمدة عامين فأملت أن يساعد بعدى عنها فى إزالة هذه الخلافات ، وسافرت بالفعل .. وحرصت على الاتصال بزوجتى وأولادى من غربتى فى مواعيد دورية .. وأمنى أن زوجتى لم تكتب لى أية رسائل خلال بعدى عنها بالرغم من تلهفى إلى أية كلمة من جانبها ، ومضت تسعة أشهر فإذا بى ألقى منها خطابا مقتضبا تطالبنى فيه بإرسال ورقة الطلاق إليها عن طريق وزارة الخارجية ، وصعقت حين قرأت هذا الخطاب ، وترقبت بصبر نافذ أول إجازة سنوية لى ورجعت إلى بلدى لأحاول إنقاذ أسرتى من الانهيار ، وناقشت زوجتى فى أسباب طلبها الطلاق وبيننا ثلاثة صغار يحتاجون إلينا فلم تجبنى سوى بأن الحياة قد استحالت بيننا وأنه من الأفضل لكل منا أن يمضى فى طريق مختلف ، وناقشت الأمر مع الأهل والأقارب فإذا بوالدة زوجتى تصارحنى بأن ذلك الزميل الذى كان يزورنا بكثرة فى بيتنا هو السر فى

طلب زوجتى للطلاق وأنه سوف يتزوجها بعد أن تحصل على الطلاق منى !

ولجأت إلى الأسرة فنفوا ذلك واتهموا والدة زوجتى بالاندفاع والتهور وواجهت هذا الزميل نفسه بما قالتة فنفاه بشدة وتساءل عما يدعو للزواج مرة أخرى وله زوجة جميلة وثلاثة أبناء ، وقضيت بقية أيام الإجازة أحاول اصلاح الأحوال بينى وبين زوجتى بلا جدوى - واضطرت للعودة إلى عملى بغير الإقدام على الطلاق حفاظا على كيان الأسرة .

ومن غربتى رحت أتصل بزوجتى تليفونيا فتخبرنى فى كل مرة بأنها متمسكة بطلب الطلاق إلى النهاية .. وفشلت كل جهودى لإقناعها بالعدول عن هذا المطلب فاضطرت إلى العودة بعد ستة أشهر فى محاولة أخيرة لإنقاذ الأسرة فاستمرت زوجتى فى معاملتى أسوأ معاملة وتمسكت بالنوم فى غرفة مستقلة ، وحين أبلغتها بأننى لا أمانع حتى فى استمرار الحياة بيننا على هذا النحو لكى تكون أما للأطفال فقط راحت تهددنى بدس السم لى أو قتلى خلال نومى إن لم أستجب لطلبها بالطلاق ، ولم تكتف بذلك بل بدأت بالفعل فى اتخاذ إجراءات طلب الطلاق عن طريق المحكمة .. وفوجئت بأحد المحامين يزورنى ويحاول اقناعى بالطلاق وديا بعيدا عن إجراءات المحاكم ، قائلا لى إننى رجل مهندس ومثقف ولا يليق بى أن أتمسك برفض طلاق زوجتى ما دامت تصر عليه ولا أمل فى عدولها عنه ..

ولم أستطع الصمود لبذاءات زوجتى وشتائمها أكثر من ذلك فوافقت على الطلاق وذهبت معها ومعى شقيقى إلى المأذون فى

موكب حزين وشعرت بأن قطعة من جسمي تنتزع منه وأنا أردد وراءه العبارات الكريهة ..

ورجعت إلى بيتي مهزوما مدحورا ، ومضت أيام العدة فما إن انتهت حتى علمت أن زوجتي السابقة وأم أطفالي الثلاثة قد تزوجت في اليوم التالي مباشرة ذلك الزميل الذي كان يدعى صداقتي ودخل بيتي واقتنص مني زوجتي .. وانهرت تماما حين علمت بذلك .. وحصلت على إجازة من العمل .. وجلست في بيتي مع أولادي حزينا مهموما وأكاد أجن من التفكير المتصل فيما حدث لي .. وفي شدة ضيقي يراودني الشيطان أحيانا أن أذهب إلى هذا « الصديق » الغادر وأقتله لأريح المجتمع منه .. ثم يعيدني عقلي إلى الرشد في أحيان أخرى وأتساءل وماذا يستفيد أبنائي إذا فعلت ذلك وكان مصيري السجن .. ومن يرعاهم في غيابي .. والغريب في الأمر أن زوجة هذا الرجل تلومني وتقول لي إنني السبب فيما حدث لأنني أدخلت زوجها بيتي وسمحت له بهذه الزيارات المكثفة وكان ردى عليها أنني سمحت للكثيرين بزيارتي فلماذا لم يفعل أحد غيره ما فعل .. والأنكى من ذلك أنه قام بتأجير شقة قريبة من مسكني بنفس الحى لمن أصبحت زوجته من بعدى وذلك لكى أموت كمدا وغيظا .. فهل من العدل أن يعاقب القانون على قتل مثل هذا الرجل ! لقد رويت لك قصتي لكى تحذر الآخرين من هؤلاء الذين يتمسحون بمسوح الصداقة ويتسللون إلى البيوت الهادئة ويهدمونها ويشردون أطفالها الصغار ويحرمونهم من أمهاتهم وأمانهم .. ولكى تنصحنى بما أفعل لكى أستطيع احتمال التجربة المؤلمة واجتيازها ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

وماذا يملك الإنسان أن يفعل إذا شاءت له أقداره أن يمني بهزيمة شخصية مماثلة سوى أن يتقبل ما حدث كما يتقبل حقائق الحياة الأخرى .. ويسلم بأنه ليس في الإمكان محوه أو تغييره .. لكنه يستطيع فقط - إذا أراد - أن يعين نفسه على اجتياز هذه المحنة بأقل الخسائر النفسية والصحية ، وأن يؤمن بأنه إذا كان قد انهزم في إحدى الجولات فإنه لم يفقد كل فرصة في الحياة وما زال قادرا على أن يبدأ من جديد مستفيدا بدروس المحنة وخبرتها الأليمة في تفادي أشواك الطريق .

لا يملك المرء في مثل هذه الظروف سوى أن يفعل ذلك .. فالتسليم بما حدث والإيمان بأنه ليس سوى عثرة من عثرات الطريق يستطيع النهوض منها ومواصلة السير إلى الأمام .. هو الخطوة الأولى في التعامل السليم مع الانكسارات والهزائم التي قد يتعرض لها الإنسان خلال رحلة الحياة .. أما التجمد أمام ما حدث .. والاستغراق النفسي والوجداني فيه إلى ما لا نهاية والانشغال الكلى بما كان عما ينبغي له أن يكون في الحاضر والمستقبل القريب فلا طائل ورائه سوى مضاعفة الخسائر .. وضياع فرص التعويض ، والعيش في إसार المحنة بدلا من تخطيها .. والتطلع لما بعدها .

والحق أننا نحتاج إلى أن ندرب أنفسنا على تقبل الهزيمة بروح واقعية كما تعلمنا من قبل أن نزهو بالانتصارات ونسعد بها .. لأن الحياة نجاحات وإخفاقات ، والمهم هو كيف

نتعلم من الفشل كما نعمنا من قبل بالنجاح ، وقديما قال شكسبير : إذا ابتسم المهزوم .. فقد المنتصر بعض لذة النصر ! وابتسامة المهزوم هنا لا تعنى السعادة بالهزيمة أو الابتهاج لها ، وإنما تعنى ألا تنكسر إرادة الإنسان أمامها وأن يؤمن بقدرته على الصمود لها .. وتعويض بعض ما خسره في سياقها .

وفي قصتك ليس يعيب الإنسان أن يرفضه شريك حياته أو أن يخون عهد الوفاء معه لأن الخيانة في النهاية هي عار الخائن وليس المخون ، وإنما يعيبه حقا أن يتمسك هو بمن رفضته وأن يمتهن نفسه وكرامته في استجداء استمرارها معه بعد أن أكدت المؤشرات الواضحة من قبل أن تحت الرماد نارا لا تخفى على فطنة أحد . وأنه من الأكرم لمن كان في مثل ظروفك أن يقبل بما ليس منه بد ، ويطلق سراح من لم تحفظ عهده ، ولم يردعها عن الانصياع لأهوائها ثلاثة أطفال صغار كأطفالك .

فإذا كانت ثمة مسئولية عما حدث فالمسئولية مشتركة بين أطراف الثالوث الشهير في الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر وهو ثالوث الزوج والزوجة والصديق وإذا كانت زوجة ذلك الرجل تعتبرك المسئول الوحيد عما حدث لأنك قد فتحت بابك لزوجها وتقبلت زيارته المكثفة لك ولزوجتك بدون زوجته فإن هذه المسئولية رغم أهميتها ليست في النهاية المسئولية الوحيدة .. حتى وإن كانت قد ساهمت في تصعيد الأحداث بالفعل ، لأن الرجل زميل لزوجتك في العمل ..

ولم يكن كلاهما ليعجز عن التواصل مع الآخر إذا أغلق في وجهيهما باب اللقاء المشترك معك وإن كان ذلك لا يغير من الحقيقة العامة وهي أن التحفظ في مثل هذه العلاقة هو الأولى بالاتباع بالفعل سدا لأبواب الفتنة والإغراءات والمشاكل .

لكنى بالرغم من ذلك لا أفهم أن ينصب حقدك على هذا الرجل وحده حتى لتفكر في الانتقام منه بدعوى « إراحة المجتمع » من أمثاله .. وهو بالرغم من أدانته أخلاقيا في هذه القصة المؤسفة لم يكن الطرف الوحيد فيها بل ربما لم يكن أيضا الطرف الفاعل المؤثر في القصة كلها ، إذ كانت هناك كذلك زوجتك السابقة ومسئوليتها لا تقل خطرا عن مسئوليته إن لم تزد عليها .

لأنها لو كانت قد حفظت لك عهدك أو نفرت من فكرة الخيانة والارتباط بغير زوجها وتعرض استقرار أطفالها للخطر لما نجح هذا الرجل مهما بلغ تأثيره في فك عرى العلاقة الزوجية بينك وبينها . وعلى أية حال فإن فكرة الانتقام منه لا معنى لها .. ولا طائل من ورائها سوى مضاعفة الخسائر الإنسانية والاجتماعية بالنسبة لك ولأطفالك .. ولقد تزوج كل منهما من الآخر ، وانطوت بذلك صفحة العلاقة غير المشروعة بينهما وبدأت صفحة أخرى لا يحق لك أو لغيرك الاعتراض عليها .. فاطو أنت أيضا هذه الصفحة المحزنة من حياتك وتطلع لبدء صفحة جديدة خالية من أخطاء الماضي وآلامه ..

واعلم أن الانشغال الشديد بأمر من خانت عهدك ومن تزوجها حتى ولو بالكراهية لهما والتفكير في الانتقام منهما أو من أحدهما ، ليس من علامات البرء من هذه المحنة .. لأنه حتى الكراهية الشديدة لمن آذونا انشغال وجداني بأمرهم لا يستحقونه منا ، ولا يستحقون أن نبدد فيه طاقتنا النفسية .. وإنما تلوح بشائر الشفاء في الأفق حقا حين نبدأ في تجاهل أمر من أساءوا إلينا .. « واعتبارهم » من غير الأحياء .. وغير الأموات بالنسبة إلينا على حد تعبير الفيلسوف الألماني نيتشه ، فيكون ذلك علامة إيجابية على اجتياز المحنة .. والتهيؤ لمواصلة الطريق ..

صراع الدينأصورات!

أبدأ رسالتى إليك بهذا الدعاء الذى يتردد دائما فى أعماقى :
﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ صدق الله العظيم .. فأنا شاب
عمرى ٢٣ عاما ولى شقيق وحيد عمره ١٧ عاما .. ولقد نشأنا
بين أبى وأمى فى أسرة تظللها التقاليد الأصيلة ويرفرف عليها
الحب الذى بدأت به حياة الأبوين وارتباطهما ، وترسخ فى أعماقنا
حين أدركنا أنه وحده كان سبب وجودنا ، حيث جمع الحب بين
أبويننا وتحديا به الجميع والظروف المحيطة ونجحا فى ذلك .

ولقد كنا نقيم فى شقة صغيرة من حجرتين وصالة بمدينة
نصر .. ونخرج يوم الاجازة مع أبويننا اللذين يعمل كل منهما
بوظيفة ملائمة ويتقاسمان أعباء الحياة .. ولم نكن نشعر بأننا
محرومان من أى شىء ، ولا ننظر إلى غيرنا من الأبناء ولا يعنينا
ماذا يملكون أو ينفقون ، ثم تقدمنا فى مراحل التعليم وارتقت
أحوالنا المادية والاجتماعية كثيرا وانتقلنا إلى شقة أكبر وأوسع
بمدينة نصر كذلك .. واحتفظ أبى بالشقة القديمة الصغيرة لتكون
لى ولأخى فى المستقبل ، وأصبح أبى مديرا فى عمله ، وأمى

مديرة فى عملها ، وأصبح كل منهما يمتلك سيارة خاصة يذهب بها إلى عمله .. وبعد فترة قصيرة .. بدأت حياتنا تشهد بعض المتغيرات الجديدة عليها وبدأت المشاكل العادية التى قد تحدث فى أى أسرة تتكرر بمعدلات أسرع فى حياتنا وتتجمع ضغوطها تحت السطح ونحن لا نشعر بها ، وضاعفت منها ضغوط العمل ومشاكله .. فأدى كل ذلك إلى تضخيم آخر مشكلة زوجية شهدناها بيتنا بين أبى وأمى ووسوس الشيطان لأحد الطرفين وهو فى غضبه أن يتخلص من كل ما يربطه بحياته السابقة بدعوى أن العمر قصير ، وقد لا يستطيع أن يفعل ما يريد أن يفعله الآن فى المستقبل ، فيرد عليه الطرف الآخر بالجرح والإهانة والتهديد بأن يفعل هو أيضا نفس الشيء فى أقرب وقت .

وتصاعد الموقف بأسرع من قدرتنا على الاستيعاب .. ناهيك عن الإصلاح أو التدخل لوقف التدهور ، وطلق أبى أمى ولم يكتف بذلك وإنما تزوج أيضا بأخرى ردا على اهانة أمى له ببعض العبارات المستفزة ، وباع الشقة القديمة التى كان يحتفظ بها لنا ليشتري شقة أخرى يتزوج فيها . ولم تقف أمى مكتوفة الأيدي أمام هذه الإهانة الاجتماعية التى وجهها لها أبى بزواجه فتزوجت هى الأخرى خلال فترة قصيرة ، وطلبت منا مغادرة الشقة التى نقيم فيها معها لى يأتى زوجها ليعيش معها وغيّرت كوالين الشقة وسدت أبوابها فى وجهينا أنا وأخى كما لو كنا « خدما » انتهت مدة خدمتهم فى هذا البيت وأن لهم أن يبحثوا عن غيره . وعجبنا لما حدث .. وتساءلنا عن السبب فجاءنا الجواب أن الهدف هو أن نجد أنفسنا بلا مأوى فنذهب لأبينا ونحصل منه على حقنا

لديه بأى وسيلة فإن لم نستطع ذلك فلنتغص ، إذن عليه حياته الجديدة .. ولو باشعاره بأننا قد أصبحنا مشردين بعد أن كنا نحيا حياة آمنة وننعم بحماية الأبوين ورعايتهما .. ولا عجب فى ذلك وكل منهما يريد أن ينتقم من الآخر .. بغير أن يضع فى حسبانته أننى فى سنة البكالوريوس وأن أخى بمدرسة خاصة ذات مصروفات عالية .

ولأن الهدف هو الانتقام فقد راح كل منهما يشن على الآخر حرب الدعاوى القضائية ويجىء بمحاميين كبار من أساتذة الجامعات وينفق على قضاياه من المال ما نتحسر أنا وشقيقى حين نتذكره ونحن نبىء فى تجديدات مسجد قريب من منزلنا السابق كنت أصلى فيه بانتظام خلال شهر رمضان الماضى ، فإذا به يصبح مأوى أنا وشقيقى إلى أن يقضى الله فى أمرنا .. وإننى أتساءل يا سيدى هل تتغير النفوس من الحب إلى الكراهية العمياء والرغبة العارمة فى الانتقام من الطرف الآخر على هذا النحو ؟ .. وهل تشمل هذه التغيرات فى المشاعر .. مشاعر الآباء والأمهات تجاه الأبناء فتتحول من الحب والعطف والاهتمام والعطاء .. إلى اللامبالاة والجحود ، وعدم الاهتمام ؟ ..

وهل توجد « العاطفة » فى الإنسان تجاه أبنائه كما توجد فى الحيوانات غير العاقلة تجاه أبنائها ؟ .. وهل نحن المخطئان فيما حدث بين أبى وأمى ؟ دعنى أقل إن لنا نصيبا من ذلك لكن هل يكفى هذا النصيب لتفسير ما يحدث الآن .. وهل تستطيع أنت أن تفسر لنا ما يفعله بنا أبى وأمى كل منهما من ناحيته خاصة رفض كل منهما أن يضمنا إليه أو يوجد لنا مأوى كريما ؟ .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نعم .. أستطيع « للأسف » أن أفسر لك بعض ما تتعرض له الآن أنت وشقيقك من أذى في هذا الصراع الدائر بين أبويك على كل الجبهات .. أما إننى أستطيع ذلك « للأسف » فلأن ما سوف أقوله لك هو أسوأ التفسيرات وأبشعها وأبعدها عن الرحمة والعدل والدين وبر الأبوين بأبنائهما .. إذ أننى لا أجد مدخلا لفهم كيف يصبح فجأة شابان كانا حتى وقت قريب قرة أعين أبويهما بلا مأوى مستقر ولا مهجع يرجعان إليه سوى تجديدات مسجد كان أحدهما يصلى فيه فى رمضان ، سوى أن أبويك وقد انفلت عقال رغبة كل منهما فى الانتقام من الآخر وإيلامه وتنغيص الحياة الجديدة عليه ، قد رغب فى أن « يصدر » مشكلة أبنائه إلى الطرف الآخر ، منتظرا منه أن « يضحى » دونه بتحمل تبعاتها لكى تصفو له هو حياته ، وحين أثبتت والدتك أنها ليست « أضعف » من أبيك فيما يتعلق بمشاعرها الأمومية تجاه أبنائها ولا أقل منه رغبة فى التخلص من مسئوليتهم وعدم التوقف أمامها وهى تشق طريقها الجديد فى الحياة . فلقد أصبحت رغبة كل طرف منهما الآن ليست فقط أن يصدر مشكلة أبنائه إلى الطرف الآخر ، وإنما أن يزعجه بها وينغص عليه صفو حياته الجديدة ، فإن لم ينجح فى ذلك فلعله على الأقل يستطيع أن يثقل ضميره بأمرها وأن يخصم من صفاء حياته الجديدة بقدر ما يشعره بالذنب تجاه هؤلاء الأبناء ، فإن لم يتحقق له شئ من ذلك فلعله يستطيع - وهو المطلوب فى كل الأحوال - أن ينقص من

اعتباره لدى الآخرين ويظهره بمظهر من لا يعنيه مصير أبنائه في غمار طلبه لسعادته الشخصية واهتمامه بحياته الخاصة .

ولأن الهدف هو الانتقام وليس البحث عن حل عادل للمشكلة ، فلقد أغلق كل من أبويك بابه في وجهيكما ولم يحتفل حتى فكرة التنازل عن بعض أسباب راحته وسعادته في حياته الجديدة ، بقبول إقامتكما لديه ولو بالتبادل مع شريكه السابق ، فكانما يراهن بذلك على قدرة الطرف الآخر على احتمال تشرد أبنائه .. وينتظر الوقت الذي « يضعف » فيه قبل الآخر ويضم ابنه إليه ولو أدى ذلك إلى تعثر حياته الجديدة .. فيتحقق المطلوب وينتصر الطرف الأكثر أنانية .. ويفوز في صراع الديناميكا التي لا يكف أحدهما عن الآخر حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة .. وهكذا اتفقت إرادة الطرفين أو أنانيتهما على الأصح على ألا يفعل كل منهما شيئاً جاداً لحل مشكلة المأوى الملائم لكما .. مكتفياً فيما يبدو بمدكما ببعض نفقاتكما كأنما يرغب بذلك في أن تظل قضية الابنين المشردين حية في ضمير الطرف الآخر تذكره بالثمن الباهظ الذي دفعاه ثمناً لاختياره الذاتي لسعادته بعيداً عنهما .. وحية أيضاً في مجتمعه العائلي تذكر أفرادهم بمدى ذاتيته وعدم استعداده للتضحية ببعض اعتباراته الشخصية من أجل ابنه ، تماماً كما تفعل بعض الدول حين ترفض بإصرار منح جنسيتها لمن يلجأون إليها في ظروف الحروب أو المجاعات ، لكي تظل مشكلتهم حية تؤرق ضمير العالمى

وتدفعه للبحث عن حلول جذرية تعيدهم إلى بلادهم الأصلية . غير أن ما يمكن القبول به في السياسة في بعض الأحيان ، لا يمكن أبدا القبول به في العلاقات الإنسانية وعلى الأخص في علاقة الأبوين بأبنائهما ولقد نسي أبواك للأسف في غمرة هذا الصراع الدامي بينهما أنه إنما ينتقم كل منهما من الآخر في أبنائه هو وليس في أبناء الطرف الآخر وحده ، وأن رغبته في « ازعاج » الطرف الآخر بمشكلة الابنين أو إثبات تخليه عنهما طلبا لراحته لا يدفع ثمنها في النهاية سوى هذين الابنين .. وما أبشعها ساحة للصراع والانتقام .. وما أخس الفوز فيها والانتصار .. « وكفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت » كما يقول لنا مضمون الحديث الشريف ، غير أنني مازلت بالرغم من كل ذلك أعجب لهذا الانهيار المفاجيء في حياتك أنت وشقيقك حتى لتصبحا معا فجأة بلا مأوى .. ولا أمل في مستقر قريب .. وأتساءل : وأين أعمامك وأخوالك وأهلك الأقربون؟ .. وأين سعيهم مع الطرفين لكي يضع كل منهما مصيركما المجهول في اعتباره وهو يشن حرب القضايا على شريكه السابق ويدفع الاتعاب الباهظة للمحاميين الكبار ؟ .. ولماذا لم يفكر أحدهما في تدبير مأوى لكما ولو في شقة مفروشة ببعض هذا المال الذي ينفقه على القضايا والصراع !؟

فإذا كنت تسألني هل « توجد » لدى الإنسان نفس العاطفة التي توجد لدى الحيوان تجاه ابنائه .. فإن سؤالك الأليم ليس سؤالا تنتظر الإجابة عنه ، وإنما هو زفرة صدر ممرور مما قد

تتردى إليه في بعض الأحيان مشاعر البعض من جحود
وأناية ولا مبالاة بمصير ثمرات القلوب .. وإذا كان ثمة سؤال
يبحث عن إجابة له حقا .. فهو هذا السؤال الذي أتوقف أمامه
كثيرا في مثل هذه المآسى الزوجية .. وهو كيف تحول الحب
الذي تحدى به أبواك الجميع في بداية ارتباطهما إلى كراهية
ضارية للطرف الآخر ورغبة وحشية في الانتقام منه
ولو بطعنة في صدر أبنائه منه ؟

ألا يلاحظ معي البعض أن كثيرا من هذه المآسى قد بدأت
بحب « تحدى به طرفاه الجميع » وتمسكا به ونجحا في
فرض إرادتهما على الآخرين مما يعنى أنه كان من البداية
ارتباطا لا يرشحه العقلاء للنجاح والاستمرار ويرون فيه
ما لا يراه طرفاه اللذان حجت عنهما العاطفة الهوجاء
تعارضه من البداية مع أحكام العقل ؟!

إن المثل الهولندي القديم يقول : « إن الحب إذا انقلب إلى
كراهية فإنه لا يعرف حدودا » وبعض علماء النفس يقولون
لنا : « إن الكراهية قد تصبح في بعض الأحيان هي الوجه
الآخر للحب » وأن هناك نوعا مركبا من العلاقات العاطفية
يصفونه بأنه علاقة الحب - الكره ، التي تجتمع فيها المشاعر
المتناقضة نتيجة لأن أحد الطرفين ينقم على الآخر بعض
تصرفاته فيكرهه من أجلها .. لكنه ينجذب إليه في نفس
الوقت بعاطفة أقوى هي عاطفة الحب فيتواصل معه منطويا
له على هذه المشاعر المتناقضة .. غير أنني على الناحية
الأخرى أؤمن بأن الحب الحقيقي لا يمكن أن يتحول ذات يوم

إلى كراهية حقيقية للطرف الآخر ، وأنه قد يفتّر أو يموت ، لكنه لا ينقلب أبداً إلى النقيض ولا يدفع صاحبه إلى السعى لإيذاء شريكه السابق أو تدميره ، لهذا فإننى اتحفظ على حكاية الحب الذى تحدى به أبواك الجميع فى بداية حياتهما معا هذه .. كما أتحفظ كذلك على كل المعانى البشعة التى يعكسها انصراف كل من أبويك لحياته الجديدة ، وصراعه مع شريكه السابق بغير أن يجهد نفسه بالتوقف أو التفكير فى مصير ابنه من هذا الحب السابق المزعوم !!

النظرة الأخرى!

أنا سيدة فى الثامنة والثلاثين من العمر زوجة لرجل محترم فى مركز مرموق طيب القلب وعلى خلق كريم ، وقد أنجبنا ثلاثة أبناء أكبرهم الآن فى المرحلة الثانوية ، وقد أحببت زوجى منذ عرفته ومازلت أشعر تجاهه بالحب العميق وأحسن معاشرته وأستريح إليه ولا أشعر بوجود أى نقص فى حياتى وأنا معه ، وقد مضت رحلتنا فى الحياة سعيدة وهانئة وخالية من المنغصات ولم يحدث بيننا طوال حياتنا معا أية خلافات جادة ، وإذا أختلفنا حول أمر من الأمور الهينة فما أسرع ما ينتهى ، وما أسرع ما أصفح وأنسى لأننى أحب زوجى .. وأقدر له عشرته الجميلة وحنو قلبه ورقته ، غير أنه قد جد جديد كدر على صفو حياتى ، وجعلنى أنطوى على نفسى وأبكى كثيرا ولا أجرؤ على أن أشكو لأحد منه .. فنحن نقيم فى عمارة بأحد أحياء القاهرة وقيم بالقرب منا أحد أقارب زوجى ، وهو رجل يقترب من الستين ويعتبر فى منزلة عم زوجى ، وزوجته سيدة محترمة وفاضلة تعاملنى بكل الحب والاحترام وتوجهنى لما فيه خيرى وخير

أسرتى وأبنائى ، ولا تبخل على بالمشورة والنصيحة ، واعتبرها بمثابة أم لى ، أما زوجها فقد كان دائما ينظر إلى باعتبارى ابنة له وأنظر إليه باعتباره أبا لى ، لكنه ومنذ فترة غير قصيرة تغيرت نظراته لى فجأة وأصبح ينظر إلى « نظرة أخرى » ويفرض نفسه على ويتعامل معى بأسلوب رخيص لا أقبله لنفسى ، كما بدأ يقول لى كلاما عجيبا بدعوى المزاح والتهريج عن أننى جميلة .. وجسمى كقطعة من الشيكولاتة وكيف أننى « خسارة فى زوجى » وأنه يحببنى .. إلى آخر هذا الكلام الرخيص العجيب .. وقد اندهشت لهذا الكلام فى البداية واعتبرته نوعا من المجاملة الزائدة لكنى انزعجت له بعد قليل وشعرت بالخوف الشديد من هذا الرجل ، ورفضت أن أتجاوب معه فى هذا التهريج السخيف وبعد أن كنت أثق فيه وأرحب بوجوده فى بيتى فى أى وقت ، أصبحت أخاف منه وأخشى أن يدخل بيتى فى غياب زوجى ، ولقد أجبته على كلامه الغريب لى بأننى أحب زوجى ، وأنه هو وأبنائى هم أغلى ما فى الوجود بالنسبة لى ، لكنه لم يكف بالرغم من ذلك عن هذا التهريج وواصل محاولاته السمجة معى وتحيرت طويلا ماذا أفعل معه .. وكيف أعيده إلى الطريق السليم .. وشعرت بضيق شديد ولم أستطع تحمل هذا البلاء طويلا وتشجعت قليلا فألمحت لزوجى بأن عمه يضايقنى ويغازلنى ، فلم يصدق ذلك فى البداية ودهش له كثيرا ، وفسره بأنه مجرد مزاح وتهريج من رجل كبير يعتبرنى فى منزلة ابنته ورجانى ألا أردد هذا الكلام لأى إنسان آخر سواه حتى لا أتسبب فى فضيحة كبيرة للأسرة كلها ..

وشعرت بالعجز والقهر إزاء ذلك لأننى خجلت من أن أصارح زوجى بأكثر مما قلت له مما لا يمكن أن يكون مجالا لأى تفسير برىء لما يفعله عمه ، وكتمت ضيقى فى نفسى وواصلت حياتى على أمل أن يكف الرجل عما يفعل ويرجع إلى سابق عهده معى ، لكنه لم يكف ولم يتوقف وإنما تمادى فيه وبدأ يحاول أن يلمسنى بحركات تبدو فى الظاهر بريئة ، كأن يفتعل الاصطدام بى عفواً إلى آخر هذه الألاعيب الرخيصة ، ولم أطق صبرا على ذلك وألمحت لزوجى مرة أخرى بأن قريبه لم يتوقف عن مضايقتى وإنما تجرأ أكثر على ، فطالبنى بالتحفظ إزاءه وتجنب فرص اللقاء معه ومع زوجته ، ففعلت ، وأصبحت لا أكاد أغادر غرفتى ، ومع ذلك لم يرحمنى هذا الرجل ، ولم يكف عما يفعل فأصبحت لا أطيق مرآه وأخشاه ، وأصبح أبنائى يضيقون بتصرفاته المراهقة ، وزوجى لا يدرك عمق المشكلة لأننى لم أصارحه بكل شئ حرجا منه ، ولكيلا تحدث كارثة أو فضيحة عائلية بسببى ، كما أننى لم أرد أن أهين هذا الرجل أو أن أخرجته مراعاة لزوجته .. فماذا أفعل حتى أتخلص من هذا البلاء ؟. هل أصارح زوجته وأولاده بما يفعل معى ؟. وكيف يكون الحال لو ظنت زوجته أننى أشجعه على ما يفعل ؟. إننى أرجوك أن توجه إليه كلمة ، أن يتقى الله فى حرمة البيوت .. وأن يمتنع من تلقاء نفسه عن دخول بيتى فى غيبة زوجى .. وأن يعلم جيدا أننى أحب زوجى وأحترمه .. وأرفض هذا الانحدار وشكرا لك .

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

هناك حقيقة نفسية نحتاج لأن نعرفها ونحسن التصرف إزاءها على ضوء ادراكها وفهمها وليس عن جهل بها .. أما هذه الحقيقة فهي أن الرجل إذا استجاب لبعض غوارض ما يسمى بأزمة منتصف العمر وتملكته الرغبة في أن يثبت لنفسه أنه مازال الرجل القادر على التأثير في الجنس الآخر ، فإنه قد يتوجه بمحاولاته هذه إلى من يحطن به من النساء في دائرته العائلية القريبة بنفس القدر الذي قد يتوجه به - إذا اتاحت له الفرص - لمن يعرفهن في دائرة العمل والصدقات ، لهذا فإن تعامل المرأة المتزوجة مع الرجال من دائرة الأهل المقربين على أساس أنهم أقرباء مبرؤون من رغبات الرجال الغرباء وبعيدون عن التأثير بنزواتهم وأهوائهم خطأ مبدئي ينبغي الاحتراس منه .. لأن تغير نظرة الرجال لمن حولهم من نساء الأسرة أمر وارد من الناحية النفسية في أى مرحلة من العمر ، وعن واجب الزوجة المحصنة ألا تنسى في تعاملها معهم أنهم وإن كانوا من الأهل المقربين ، إلا أنهم في البداية وفي النهاية رجال لهم بدواتهم ونزواتهم وأهوائهم الجامحة في بعض الأحيان ، ويقتضى ذلك منها ألا تركز إلى الثقة في عدم احتمال تغير نظرتهم إليها ذات يوم ، وأن تلتزم في التعامل معهم بما تلتزم به من التحفظ الحكيم في التعامل مع غيرهم من الرجال ، وأن تحذر التماذى معهم فيما يغريهم بها وبالاكتراء عليها بالمغازلة ، ذلك أن بداية الخطأ في العلاقة بين المرأة المتزوجة والطامع فيها هو « تقبلها » ولو من باب

الخرج لإعجابه بجمالها الجسدى ، أو تجاوزها عنه بغير لفت نظره بالنظرة الصامتة .. وبملامح الوجه المتحفظة والمتجهمة إلى أنه قد طرق بابا لا يحق له مهما تكن قرابته أو صلته بها ، أن يطرقه ويكفى ذلك فى بعض الأحيان وحده لأن يردع ذوى الحياء عن تكرار المحاولة ، بغير الحاجة إلى صدام علنى معهم أو إثارة زوابع عائلية غير مأمونة العواقب . أما السكوت على كلمات الإعجاب بجمال المرأة المتزوجة من رجل أجنبى عنها إما تخرجاً من أحراج قائلها أو طرباً لها فإنه يمثل بالنسبة له دعوة ضمنية للاستمرار فى المحاولة ومواصلة إطلاق السهام المسمومة إلى أن تصيب الهدف ، لا فرق فى ذلك بين قريب وغريب ولا بين شاب ورجل فى الستين ، وبعض الرجال يتعاملون مع المرأة بمنطق الروائى الفرنسى جى دى . موباسان الذى كان يقول إن المرأة قد تغفر للرجل مغازلته لها واعتراضه لطريقها ، لكنها لا تغفر له أبداً إهماله لها أو عدم تأثيره بجمالها !!

وهو منطق فاسد بغير شك .. يقابله المنطق الآخر الذى تؤمن به الفضليات من النساء والذى تعتبر معه المرأة المتزوجة محاولة أى رجل آخر لمغازلتها مع علمه المسبق بأنها زوجة لغيره إهانة صريحة لأخلاقياتها واتهاماً معيباً لعفتها وإخلاصها .. وشهادة علنية من جانبه بسوء ظنه فى سلوكها ومبادئها ، إذ لو كان ينطوى لها بالفعل على ما تستحقه من احترام لأخلاقياتها ووضعها كزوجة وأم .. لما تصور إمكان تساهلها فى هذه المبادئ أو استعدادها للتجاوب مع غزله لها .

ومن هذا المنطلق يكون رد فعلها على من يتهمها بسوء الخلق صاعقا ومكافئا لسوء ظنه بها ، ويكون استياؤها منه بالغاً وحاسماً ولا يعطيه أية بارقة أمل فى إمكان تكرار المحاولة .. ولا يعنى ذلك أبداً أن يكون رد الفعل هذا صاخباً أو ملحوظاً من الآخرين ، أو سبباً فى إثارة فضيحة عائلية .. وإنما يعنى فقط أن يكون صارماً ومزيلاً لكل شبهة فى نفس المجترىء عليها بغزله ودعوته لها إلى الخطأ ..

والمرأة قادرة دائماً على أن تصعق كل من يجترىء عليها ولو بنظرة واحدة منها توقفه عند حده .. وبتعبير الاستياء الصارم على وجهها الذى ينبئه بأنه قد أخطأ الطريق من البداية ..

أما « التهاور » معه ومحاولة اقناعه بأنها تحب زوجها وأولادها ولا تعدل بغيرهم أحداً ، فإنه لا يمثل بالنسبة للمجترىء عليها سوى « بداية » طيبة للحوار حول الموضوع .. وإشارة خاطئة إلى أنه موضوع قابل أصلاً للمناقشة فيأمل أن تستمر المناقشة حوله وأن ينجح مع أطراد الحوار فى أن يثقب جدار الرفض ذات يوم .. والنسمة الخفيفة التى تطفئ الشمعة هى نفسها التى تذكى النار كما يقول لنا الحكيم الفرنسى لاروشفوكو ، ولهذا فإن مجرد تبادل مثل هذا الحوار بين زوجة محصنة ورجل أجنبى عنها إنما يعنى من حيث قد لا تشعر هى أنها قد رفعت بالفعل درجة العلاقة بينهما إلى مستوى الخصوصية الذى يسمح لهما بتبادل هذا الحوار السرى الذى لا يسعهما أن يطلع عليه غيرهما .. حتى

ولو كانت نية الزوجة صادقة بالفعل في التمسك بإخلاصها والتزاماتها الأخلاقية ، والإمام الشافعي كان يقول لأصحابه : « نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل » ..

لهذا فأنت يا سيدتي لست في حاجة لأن أناشد هذا الرجل العابث أن يكف أذاه عنك وأن يرعى حرمة البيت الذي إنتمنه صاحبه على دخوله ، لأن كل ذلك لن يجدى معه فتيلا .. وإنما أنت تحتاجين فقط إلى أن توقفي هذا الحوار الذي لا طائل تحته معه .. وأن تصعقيه بنظراتك الغاضبة ، وازدرائك له وتجنبك لرؤيته والترحيب به في بيتك سواء في حضور زوجك أو غيبته ، وتفاديك أية فرصة يمكن أن يتحدث إليك خلالها حديثه المسموم هذا أو يقترب منك .. وسيكون ذلك أبلغ تأثيرا فيه من أى مناشدة من جانبي أو « حوار » آخر من جانبك عن حبك لزوجك وإخلاصك له ، فإن لم يرتدع عن غيه بعد كل ذلك فلا مفر من مصارحة زوجك بالحقيقة الكاملة .. ليرى رأيه فيما يفعل قريبه .. ويتخذ من الإجراءات ما يحفظ عليك كرامتك ويحميك من اجتراء هذا السفیه عليك .

النظرات المتبادلة!

أنا سيدة تجاوزت الأربعين بقليل .. زوجة وأم لثلاثة أبناء ومشكلتي للأسف ليست كغيرها من مشاكل الحياة الزوجية ، وإنما حكمت على الأقدار بأن أكابد مشكلة من المشكلات التي لا يستطيع من يعانيها أن يتخفف من ثقلها الجاثم على صدره بالحديث عنها والشكوى منها لأحد مهما كان مقربا منه .. فلى شقيقة تصغرنى بثمانى سنوات وهى زوجة وأم مثلى .. وقد فتحت لها صدرى وبيتى واصطحبتها معى فى نزهاتى وخروجى إلى النادى واجازاتنا الصيفية بالرغم مما كنت أشعر به من غيرتها المكتومة منى لأن زوجى أفضل من الناحية المادية من زوجها .. ومنذ فترة غير قصيرة بدأت ألاحظ شيئا غريبا كنت فى البداية أرفض تصديقه ثم اضطررتنى الأحوال العجيبة إلى التسليم به ، فلقد بدأت ألاحظ نظرات العشق والهيام المتبادلة بينها وبين زوجى ! كما بدأت ألاحظ اهتمام زوجى الشديد بها وحرصه على أن ترافقنا فى كل مكان نذهب إليه ، وسعادته الواضحة وحيويته وابتهاجه حين تكون معنا .. وملله وجموده وصمته حين نكون فى مكان لا توجد فيه .. وبالرغم من كل ذلك حاولت ألا

أصدق ما أرى وأنكرته بشدة وقلت لنفسى إنها ليست سوى العلاقة الحميمة التى تجمع بين « أخ » و « أخته » ! إلى أن ذهبنا إلى المصيف فى العام الماضى وهى معنا .. وبدأ الشك يتحول عندى إلى جحيم ، فقد كانا يختلفيان فجأة بالساعات ثم يظهران منفصلين أحدهما وراء الآخر بربع ساعة ، ويقدم كل منهما تفسيراً غير مقنع لغيابه المفاجئ .. واكتويت بالغيرة والحزن الشديدين وعند العودة من المصيف تكرر الاختفاء الغامض إلى أن علمت عن يقين أنهما يلتقيان كل يوم ويمضيان معا بضع ساعات بعيداً عنى .. وتأكدت من ذلك بما لا يدع أى مجال للشك .

فماذا أفعل يا سيدى لكى أتخلص من هذا الجحيم الذى لا يدرك أحد لظاه سوى ! إننى إذا طلبت من زوجى الطلاق فلن يمانع فيه .. بل سيرحب به لكى تزول العقبة الكؤود من طريقهما . ولو فعلت ذلك وطلقتى بالفعل .. فماذا ستفعل أختى التى باعتنى على هذا النحو الرهيب ؟ .. هل ستحصل على الطلاق من زوجها لتتزوج من زوجى وهذا ما أرجحه ؟ وهبها فعلت ذلك فكيف ستكون صورتها أمام العائلة والأبناء ؟ وإذا لم أفاتح زوجى ولم أطلب منه الطلاق .. كيف استطيع احتمال حياتى وأنا أعلم علم اليقين أنه يلتقى بها كل يوم وأنها قد أصبحت « زوجته » أكثر منى ولها عليه من الحقوق ما لم يعد لى عليه منها ؟ هل انتحر أم أقتلها معا .. أم ماذا أفعل ؟

لقد فكرت فى مقاطعتها مقاطعة تامة لكى استريح من رؤية « الحب » فى عيونهما ؟ لكن هذا الحل سيساعدهما على الالتقاء أكثر ، وإذا استمررت فى علاقتى بها فإننى احترق بنيران الجحيم

وأنا أراها تستولى على زوجى منى ولست فى الحقيقة ألومه بقدر ما ألوم هذه الأخت الشيطانة التى لا تعرف غير رغباتها ومتعتها ولو كانت غير مشروعة ، ولا تخاف من ربها ولا تخشى على من انهيار بيتى ، ولهذا فإننى أوجه اللوم كل اللوم لها ، لأن المرأة هى المسئولة بالدرجة الأولى عن اجتذاب الرجل أو صده عنها ولأن زوجى لم يكن ليستطيع أن يقترب منها إلا إذا كان قد وجد كل التشجيع ، وكل الاستعداد منها .. فكيف هانت عليها نفسها وهنت أنا عليها إلى هذا الحد المشين - وكيف ترضى لى - أنا أختها وصديقتها - بما لا ترضاه لنفسها وهى ترى العذاب والألم فى عينى وتعلم أنها السبب فيهما دون أن تتوقف عما تفعل ؟

إننى أرجوك أن توجه لها كلمة بأن ترعى الله فىنا جميعا ، وفى أبنائنا لأننى لا أستطيع مواجهتها ، حيث أعلم جيدا أنها وزوجى سوف يستمران فيما يفعلان مهما واجهتهما لأنها تثق بأن زوجى يحبها أكثر منى ومن حقها أن تفعل ما تريد !

ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

هناك « أحوال » لا مفر من التعامل معها بمشروط الجراح الذى يفضل البتر والاستئصال ، على محاولات العلاج التى لا تجدى سوى انتشار الداء فى بقية الجسم .

وقصتك المحزنة هذه من هذه الأحوال التى لا مفر من التعامل معها بمنطق البتر والاستئصال ، والاجراء الوحيد الملائم لها هو مواجهة الزوج أولا ومطالبته بالانفصال أو على الأقل بالاختيار بين الكف عما يفعل بلا رجعة أو الطلاق ، ثم

مواجهة مثل هذه الأخت التى لم ترع للأخوة حرمة بجريمتها ومقاطعتها مقاطعة تامة ناجزة لا تجمل فيها ولا مداراة إلى أن تفيق من غيها وتندم ندما صادقا على جنايتها وتكفر عنها تكفيرا كاملا ولو بعد حين .

غير أنك - وكما فهمت من رسالتك - لا ترغبين فى أن تفقدى زوجك أو أن تنفصلى عنه وتعلمين عن يقين أن انسحابك من حياته الآن لن يكون له من عائد سوى أن يخلو له ولشريكته المجال لاستكمال خطتهما الشائنة .. وقد لا يمضى على انفصالك عن زوجك وقت طويل حتى تكون هى قد حصلت على حريتها من زوجها .. وتوجت قصتها المخجلة مع زوج أختها بالزواج منه ضاربة بذلك لأبنائها وأبنائك أسوأ المثل على انعدام الوفاء فى الحياة .. وامتهان القيم العائلية والإنسانية جريا وراء الأهواء والرغبات .. وصانعة بذلك مأساة « إغريقية » جديدة تهتز فيها المثل والقيم فى مخيلة الأبناء .

ولأن الأمر كذلك فإنى أنصحك بمجافاة هذه الأخت اللعينة ومقاطعتها فى صمت مقاطعة لا تتيح لها فرصة الوجود فى حياتك الأسرية بلا أى محاولة من جانبك للشرح أو التفسير تاركة لها بذلك أن تفهم عنك أنك لن تقفى من الآن ذلك الموقف السلبي العاجز مما يجرى حولك ، حتى ولو كان ثمن ذلك هو إتاحة الفرص أكثر لهما للالتقاء فى غيبتك .. ذلك أن وجودها فى حياتك العائلية لم يحل ولن يحول بينها وبين ما تفعله مع زوجك .. وعلاقتك بها لا تردعها عن الاستمرار فيها .. فما

معنى اذن أن تتعذبي بملاحظة مشاهد الحب والاتصال بين الطرفين وأنت تحترقين بنيران الجحيم فى أعماقك ولا تستطيعين البوح بما تتعذبين به أو الشكوى منه !

أما زوجك فلقد كنت أفضل المواجهة الصريحة معه وتخييره بين الكف عما يفعل .. أو الانفصال عنه ، لكنك لا تقدرين على تبعات هذه المواجهة .. وتشعرين بضعف موقفك فيها مع أنه هو من ينبغى له أن يشعر بضعف موقفه وتخاذله فى هذا الوضع الشائن .

وما دام الأمر كذلك فلقد يكون من المفيد فى معركتك للاحتفاظ به وحمايته من برائن الأخرى ، أن تلمحي له بغير تصريح إلى فهمك لما يدور أمامك ورفضك القاطع له ، وتمسكك بالرغم من جراحك واحزانك بالأمل فيه وفى عودته ذات يوم قريب إلى الطريق القويم .. حرصا عليه مما لا ترضينه له من الاستمرار فى الدنس والخطيئة وفقد الاعتبار ، وإعلاء لسعادة الابناء واستقرارهم على كل الاعتبارات .. عسى أن يفيق من غيه ويخجل من نفسه ويرجع إلى رشده ويعرف أن من تضحى بأختها وبكل القيم الدينية والأخلاقية والعائلية لكى تظفر به لا تساوى فى حقيقة الأمر قلامة ظفر ولا تستحق أن يفقد من أجلها زوجته وأم ابنائه واستقرار حياته العائلية .. و « صورته » كزوج وأب ورب أسرة ينبغى أن يكون له ما لأمثاله من احترام وإجلال فى عيون من حوله .. أما مناشدة تلك « الأخت » فلا طائل تحتها .. ومثيلاتها قد لا يجدى معهن سوى التهديد بهتك سترها أمام

زوجها وأبنائها غير أن أختك الفريدة من نوعها « تتميز »
عليهن بشيء آخر ليس في صالحك للأسف الآن .. وهو أنها
ليست حريصة على زوجها ولا أبنائها ولقد يسعدها أن
تتورطى في تصعيد الأمر معها على هذا النحو بما يؤدي إلى
انهيار حياتها الزوجية فتضيف بذلك إلى « مؤهلاتها » لدى
زوجك المسلوب مؤهلا جديدا هو أنها - واحسرتاه - قد خسرت
حياتها العائلية من أجله وبالتالي فإن واجبه أن يعوضها عما
خسرت ، بالانفصال عنك .. والزواج منها واستكمال فصول
هذه المأساة الأخلاقية المخيفة .. ولا حول ولا قوة إلا بالله !

حصاد الصبر!

أكتب لك هذه الرسالة فى مناسبة مهمة فى حياتى أردت أن أشركك معى فيها وأن أذكرك بدورك الذى قد تكون نسيتَه الآن فى إتمامها .. فأنا مهندس شاب بوزارة الرى عمرى ٣٨ عاما .. وأما بداية القصة فلعلك تذكر الرسالة التى نشرتها منذ أكثر من عامين بعنوان « الإصرار » وكانت لسيدة متزوجة ولها طفلتان تروى لك فيها عن جارتها الشابة الجميلة البالغة من العمر ٢٩ عاما وتقيم بجوارها فى شقة وحدها .. وتقول لك فى رسالتها أن قصة هذه الفتاة قد بدأت منذ سنوات حين كانت فى طريقها إلى كليتها بجامعة عين شمس فصادمتها سيارة مسرعة وحملها المارة إلى المستشفى فتبين أنها قد أصيبت للأسف بشرخ فى العمود الفقرى ، وبعد رحلة عناء طويلة بالمستشفيات فى الداخل والخارج ، رجعت إلى حياتها جالسة فوق مقعد متحرك ، ولم تترفق بها الأقدار فرحلت أمها عن الحياة بعد قليل ، ووجدت نفسها وحيدة فى مسكنها الخالى بعد زواج الإخوة ، وانشغال الأب الذى يقيم فى مسكن آخر بحياته وأعماله ، ولأن كل إنسان مشغول بحياته فلقد أصبحت وحيدة تماما فى مسكنها المجهز بكل

الأجهزة وتقوم بشئون نفسها وتنظف شقتها وتطهو طعامها ،
وتقدم إليها رجل متزوج فرفضت أن تطلب سعادتها على حساب
تعاسة إنسانه أخرى ، وتقدم إليها من جاءها طامعا في مالها
وحده فرفضته لأنها ترجو أن يجمعها ربها بمن يرغبها لنفسها
فتحبه ويحبها ، وفي النهاية طلبت منك هذه السيدة الفاضلة أن
تكتب لجارتها الشابة أن الاعاقة ليست نهاية الحياة وأن أحلامها
ممكنة التحقق حين يأذن الله بذلك .

ونشرت الرسالة ورددت عليها بما ألهمه الله لك من كلمات طيبة
ومشجعة مؤكدا للفتاة ولثيالاتها أن نسبة نجاح الزواج
واستمراره في الحالات الإنسانية الخاصة أعلى منها بقدر ملحوظ
في الحالات العادية ، وأن خبراء الاستشارات الأسرية في الغرب
يرجعون ذلك إلى أن درجة الإصرار على النجاح تكون عالية
للمغاية عند الطرف الذي يعاني من الحالة الإنسانية ، فيبذل كل
ما في وسعه لإنجاح الزواج ويجد ذلك صداه المتوقع لدى الطرف
الآخر فيتجاوز الطرفان الهنات الصغيرة التي قد يتوقف عندها
الآخرون في الظروف الطبيعية .

وفي هذه الفترة كنت أمر بأزمة نفسية شديدة بسبب عاصفة
الأحزان التي هبت على حياتي قبل فترة قصيرة ، وليلة نشر هذه
الرسالة كان ألمي قد بلغ مني حدا مضاعفا ، وشكوت إلى صديق
متدين ما يضيق به صدرى فنصحني بأن أدعو ربي في صلاة
الفجر كل ليلة بهذا الدعاء : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير
فقيير » ، وسألنى لماذا لا أمضى هذه الليلة معه في المسجد حتى
نصلى الفجر معا عسى أن يذهب الله عنى الحزن ، واستجبت لما

نصحنى به وأمضيت تلك الليلة معه فى المسجد قائما أصلى .. أو جالسا أقرأ القرآن الكريم ، أو متأملا فى صمت .. وفى الصباح المبكر خرجت إلى الشوارع واشترت الصحيفة فوجدت فيها قصة هذه الفتاة فشعرت بأنها قد تكون ضالتي التى أبحث عنها دون جدوى ، ووجدت نفسى أكتب إليك معلقا على قصتها .

ونشرت رسالتى بعنوان « العاصفة » ورويت لك فيها أننى مهندس عمرى ٣٦ سنة - وقتها - وإنه كانت لى ذات يوم قريب أسرة صغيرة وزوجة غير مصرية تزوجتها بالرغم من معارضة أهلى لزواجى منها ، وإن هذا الزواج كان بداية لعاصفة من الأحزان فى حياتى الخاصة حيث رحل أبى عن الحياة عقب زواجى مباشرة ، ومن بعده أمى أيضا يرحمهما الله ، ثم لم يمض وقت طويل على رحيلهما حتى سقطت طفلتى الوحيدة من الدور الثالث بسبب إهمال أمها فى رعايتها ، ورحلت هى الأخرى عن دنيا الألم والأحزان ، فلم أستطع احتمال الحياة مع زوجتى بعد ذلك وانفصلت عنها بالطلاق ، وعشت وحيدا فى شقة بإحدى المدن الجديدة ولم يعد لى من أهل سوى شقيقين يقيمان فى حى بعيد ، وفى ختام رسالتى إليك تساءلت ترى هل تقبل هذه الفتاة الارتباط بى على سنة الله ورسوله عسى أن يواسى كل منا الآخر ويعوضه عن وحدته وأحزانه الماضية ؟. وبعد أيام من نشر الرسالة زارتك هذه الفتاة فى مكتبك فوق مقعدها المتحرك يصحبها عمها ، وقمت بتسليم العم عروض الارتباط التى تلقاها مكتبكم بشأنها ، وفوجئت بعد أيام باتصال من والدها بى يدعونى فيه إلى مقابلته فى بيته ، فتوجهت إليه مستبشرا ومؤملا أن

يحقق الله لى أمنيته فى السعادة والأمان ، فكان لقائى الأول بالأب فى مسكنه الذى يعيش به مع ابنه الأصغر وحدهما ولم أجد الفتاة المقصودة .. وشرحت للأب ظروفى ورغبتى فى الارتباط بابنته فلمست منه التحفظ وعدم الترحيب ، ثم طلب منى الانصراف بعد قليل لأن هناك زائرا آخر عن طريق يريد الجمعة سيحضر لمقابلته بشأن ابنته !

وانصرفت متخاذلا ومتشائما وشكوت لصديقى الذى علمنى الدعاء المفضل ما لقيت من تحفظ الأب وعدم ترحيبه بى .. وأرجعت ذلك إلى ظروفى كمطلق .. فسألنى ولماذا لا تطرق بابا آخر كعمها مثلا ، ونفذت النصيحة وتم اللقاء بينى وبين هذه الفتاة لأول مرة فى بيت عمتها ، فما إن التقيت بها والتقت بى حتى قُضى الأمر الذى كنتم فيه تختلفون .. وشعرت بأنها الفتاة التى كنت أبحث عنها من قديم الزمان ، وقالت هى لعمتها عنى إننى الشخص الذى رآته فى أحلامها يأتى إليها .. ويملاً فراغ حياتها بالحب والحنان .. واتفقنا على الارتباط .. لكنى علمت أن والدها لا يشعر تجاهى بالارتياح وأنه يرفضنى لأسباب مختلفة منها ظروفى السابقة ومنها أنه تساوره الشكوك فى نيتى فى استغلال ظروف ابنته الإنسانية .. و « الاستفادة » من مالها وهو مبلغ حصلت عليه كتعويض من جامعة عين شمس عن الحادث الذى تعرضت له وتحفظ به كوديعة فى البنك ، ولم أغضب من الأب ، لكنى حزنت وتعجبت كيف يصد عن ابنته شابا يرغب فى الارتباط بها لمجرد ظنون ليس هناك أى دليل عليها .. وأى مال يمكن أن يسعى إليه شاب مثلى فقد طفلة الوحيدة قبل عامين

ويعانى من وحدته وأحزانه !؟

ولم أدر فى حينه بما دار بشأنى بين الأب وابنته ، لكنى علمت فيما بعد أنه رفضنى ، وأن ابنته تمسكت بى بشدة وأعلنته برغبتها فى الارتباط بى فاستجاب لها بضغط من شقيقه وشقيقته . وذهبت للقاءه فى مسكنه أخيرا وقرأنا الفاتحة ، واستجبت لكل مطالبه بلا ممانعة .. قال لى إن مسكنى بعيد وفى الدور الثالث ولا يصلح لابنته ، فوعده بتغييره وسعيت إلى بيع شقتى بالمدينة الجديدة ، وقبلت بيعها بثمن بخس ، وحدد قيمة الشبكة والمهر والمؤخر فقبلت بكل ما أراد ، وطلب منى أن أعطيه ثمن الشقة بعد بيعها ليودعه فى البنك باسمه إلى أن أحضر الشقة الجديدة لكيلا أتصل من وعدى بإحضار شقة أخرى لابنته غير شقتها التى تقيم فيها وحيدة وهى صغيرة ، فقبلت بذلك ووعده به ونفذته فيما بعد بالفعل .. كل ذلك وأنا سعيد ومتفائل وأشعر بأن كل لقاء بينى وبين هذه الفتاة يقرب بيننا والأب على ما هو عليه من تحفظ وعدم حماس .. وحددنا موعد عقد القران فى المسجد ورفض الأب أن يشتري لابنته فستانا أبيض رغم قدرته المالية ولا أن يسمح لى بشرائه ، وقبلنا بذلك صامتين ، ورفض استدعاء كوافيرة لزيينة المحجبات من مثيلات ابنته وقبلنا بذلك راغمين ، ورفض أن تذهب معى لشراء الشبكة ، ولم أعترض على ذلك وتم عقد القران فى تحفظ أقرب إلى التجهم والجفاء الصامت منه إلى الفرحة والابتهاج ، وانصرف الأب عقب عقد القران وحملتنا السيارة إلى مسكن زوجتى ، فما إن اقتربنا منه حتى بدأ الفرع الحقيقى الذى لم نجده من قبل .. فلقد التف حولنا جيران

زوجتى الطيبون ومنهم السيدة الفاضلة التى كتبت لك عنها ، وبدأ
الطبل والزمر والغناء والزغاريد والابتهاج الصادق الصادر عن
القلب بلا شائبة واندفعت السيدات الفاضلات وبناتهن يقبلن
زوجتى ويغنين لها ويداعبنها وانفعل جار طيب على المعاش
فأخرج مسدسه وأطلق منه عدة طلقات فى الهواء طربا وابتهاجا
بسعادة هذه الفتاة التى طالما تعاطف مع ظروفها من قبل وحمل
إلينا الجيران الطعام والشراب والتورقة وشاركونا فيها ..
ولم يغادرونا إلا عند منتصف الليل وهم يوصوننا بأن نبدا حياتنا
الزوجية بأداء ركعتى شكر لله عسى أن يبارك لنا فى حياتنا
وصحبتنا وسعادتنا .

وبدأنا حياتنا الزوجية معا وكل منا كالأرض العطشى إلى
الحب والحنان والعطف من شريكه الجديد .. ووجد كل منا بغيته
لدى الآخر .. فوجدت فيها الطيبة والعطف والاهتمام الزائد بى
والقلق الشديد علىّ إذا تأخرت عن موعد عودتى إليها ولو لفترة
يسيرة ، كما وجدت فيها أيضا ربة البيت الممتازة والطاهية
الماهرة ، ووجدت هى فى ما تقوله من أننى أعطيتها كل ما افتقدته
فى حياتها من قبل من حنان وحب ورعاية ، وخلال حياتنا
المشتركة معا بعث شقتى فى المدينة الجديدة وحصلت على شقة
بالدور الأرضى بالإيجار الجديد أوسع من شقة زوجتى السابقة
لكى يتسع مجال الحركة أمامها .. وكتبت عقد الإيجار باسمها ،
وفتحت بإذن من المالك بابا من المطبخ إلى الشارع ورفعت
مدخله بحيث يصبح منزلقا ليسمح للكرسى المتحرك بالدخول
والخروج ، واشتريت بما تبقى معى من ثمن الشقة سيارة مجهزة

لزوجتى وكتبتها باسمها .. وأهديتها مقعدا متحركا جديدا ، وأعطيتها توكيلا عاما عنى للتصرف فى كل شىء .. وسعدت زوجتى بالمسكن الجديد وصنعت لنفسها سريعا صداقات جديدة مع جيراننا لأنها تدخل القلوب ببسر ، وتجد دائما من يحبونها ويتطوعون لخدمتها .. واستمرت صداقتها بالسيدة الفاضلة التى كتبت لك عنها .. ولم تمض شهور حتى كان جنين الحب يتحرك فى أحشاء زوجتى ، وعاشت زوجتى تجربة الحمل بمشاعر بهيجة .. واقترب موعد الولادة فحصلت من عملى على إجازة ودخلت معها المستشفى ولازمتها فيه حتى وضعت مولودنا الأول ، ولقد فكرنا جديا فى أن نسميه باسمك لولا أن كان قد سبق منى النذر إلى الله سبحانه وتعالى أن أسميه إذا جاء ذكرنا « عبد الله » .. وإذا جاءت أنثى « مريم » ولقد أنعم الله علينا بعبد الله منذ ٢٠ يوما .. وكانت هذه هى المناسبة السعيدة التى أردنا أن نشرك معنا فيها ونذكرك بقصتنا معك .. ولقد عدنا من المستشفى إلى البيت حاملين مولودنا الصغير فتلقتنا الجارة الطيبة الجديدة التى تنادىها زوجتى « يا خالتى » بالنصائح المجربة فى رعاية الأطفال حديثى الولادة وعلمت زوجتى كيف تتعامل مع مولودها ، وكيف ترضعه وتغير ملابسه الخ .. وساعدتها فى ذلك ، وحملته عنها كثيرا ، وعرضت عليها أن ترعاه فى غيابها إذا اضطرت للخروج .

وها نحن نكتب إليك الآن بعد أكثر من عام من زواجنا وأقل من شهر من إنجابنا طفلنا الصغير لنقول لك أن « الإصرار » الذى تحدثت عنه فى ردك على الرسالة الأولى يدفعنا إلى إنجاح زواجنا

واستمراره .. وأن الحب الذى جمع بيننا يترسخ ويتعمق ويتعمق ، ولقد غير كل ذلك من نظرتنا السابقة للحياة .. فأذهب الله عنا الحزن .. والوحدة .. والمعاناة ، وأنعم علينا بالسعادة والعشرة الطيبة والاهتمام المتبادل .. وتغيرت نظرة زوجتى إلى كثير من الأشياء ، فلقد كانت بتأثير من بعض ما شهدته ولمسته من آلام فى حياتها ، تتوجس من الدنيا وبعض الناس .. فأقنعتها بأن الخير فى الدنيا إلى يوم يبعثون ، ودعوتها ذات مرة إلى التجربة العملية ونحن نتجول فى الشارع وهى على مقعدها المتحرك ، فأبلغتها أننى سأبتعد عنها وأدعها تسأل المارة أن يساعدها فى عبور الشارع أو فى شراء شئ من المحلات أو أداء أى خدمة لها ، وابتعدت عنها بالفعل .. وجلست هى وحيدة فى مقعدها ثم سألت أول عابر بها أن يعينها على أمرها .. فإذا بكثيرين يتوقفون للحديث معها ويبشون فى وجهها ويعرضون استعدادهم لأداء خدمة لها .. فرجعت إليها مبتسما وشكرت الجميع ودفعت المقعد فى طريق العودة ..

أما أنا فلقد انهمرت على جوائز السماء التى تتحدث عنها منذ تزوجت هذه الإنسانية الطيبة الجميلة وهطل على الرزق الحلال من أبواب السماء بلا حساب والحمد لله .. وسافرت فى مهمة مندوبا من وزارة الرى إلى أوغندا لمدة ٨ أيام لحل مشكلة فنية فى بحيرة فيكتوريا ، وحصلت على بدل سفر بالعملة الصعبة لأول مرة فى حياتى ، كما حصلت منذ زواجى وحتى الآن على مكافآت تفوق فى مجموعها كل ما حصلت عليه من مكافآت طوال مدة خدمتى .. وحصلت لأول مرة فى حياتى على مكافآت بأرقام فلكية بالنسبة

لدوائر الحكومة .. فإن كان لزوجتى الآن من مطلب فهو أن تواصل الاهتمام بمشاكل المعوقين وتدعو الدولة للعناية بهم ورعايتهم والاهتمام بتوفير العلاج الطبيعى والوظيفى لهم لى يتكيفوا مع حياتهم ، وإلى الاهتمام بإنشاء مداخل منزلة لهم فى كل المباني العامة والعمارات كما هو الحال فى الدول المتقدمة ، لكيلا أضطر كما تقول هى إلى حملها بمقعدها كلما ذهبنا لأداء عمل فى إحدى الجهات أو زيارة إحدى الأسر ..

وختاما .. فإنى وزوجتى لا نملك لك فى النهاية إلا الشكر والدعاء .. ونرجو أن تتقبل منا هذا المصحف المرفق وهذه المسبحة المتواضعة رمزا للشكر والحب والعرفان ..

وأنهى رسالتى إليك بهذا الدعاء الحبيب شكرا وامتنانا لله رب العالمين : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مازلت أذكر حتى الآن ملامح هذه الفتاة الطيبة حين زارتنى فوق مقعدها المتحرك مع بعض ذويها عقب نشر قصتها . كما مازلت أذكر أيضا رسالتك التى تضمنت رغبتك فى الارتباط بها وقصتك مع عاصفة الأحزان التى عصفت بحياتك قبلها .

فأية سعادة أن أعرف الآن أن الأقدار الرحيمة قد مسحت على أحزانكما معا وجمعت بينكما فى بيت هانىء صغير .. أثمر الحب فيه ثمرته المباركة ووهبكما الله من لدنه غلاما جميلا ؟

إن في العالم - كما يقول الكاتب المسرحي الأمريكي تيرنس راتنجان - ظلاما كثيرا ولهذا فهو يرحب بكل شمعة ولو كانت صغيرة تبدد بعض ظلامه ، وهذه التطورات السعيدة في حياتكما هي شمعة صغيرة جديدة تصحح عن الحياة بعض أخطائها وتزيل بعض ظلامها .

ولقد تأملت قصتكما مليا فلم أجد لها عنوانا أبلغ من هذا العنوان « حصاد الصبر » ! أى جوائزه التى يعد الله سبحانه وتعالى بها الصابرين فى الدنيا والآخرة ويبشرهم بالفوز بها . ولقد صبر كل منكما على آلامه وأحزانه الشخصية وظروفه الإنسانية وتعلق أمله برحمة ربه فى أن يذهب عنه الحزن ويؤنس وحشته ووحدته ويهبه السعادة والأمان فصدقت النية فى الطلب . وهيات الأقدار كلا منكما لأن يكون لرفيقه الأمل .. والعزاء وفدية الأحران ، فروى أرضه العطشى بماء الحب والعطف والحنان وارتوى من نبعه .

فإذا كنت قد ووجهت فى البداية بتحفظ الأب وتشككه فى نيتك تجاه ابنته فلکم يخطئ الإنسان التقدير فى كثير من الأحيان .. ولكم تفسد علينا الظنون والهواجس أحيانا ما كنا جديرين بأن نسعد به وتسكن أرواحنا إليه لو كنا قد غلبنا لدينا الإيمان بخيرية الحياة وحسن الظن بالآخرين على التوجس منهم والتشكك فى نياتهم . غير أن فتاتك الطيبة قد حسمت الأمر على أية حال بترجيحها لحسن الظن فىك على سوءه . ولم يخذلها حسها الصادق فيمن توسمت فيه الخير والعطاء والحمد لله . ولكم كان مثيرا للتأمل .. أن تأتى الفرحة

الصداقة والابتهاج الغامر بسعادة قلبين جريحين من جانب الجيران والأصدقاء وليس من الأهل وذوى القربى . لكن كل ذلك قد مضى إلى سبيله وأصبح من الذكريات ، ولعله قد أصبح أيضا من تحديات السعادة التى تشحذ رغبتكما المشتركة دائما فى الحفاظ عليها والدفاع عنها ضد ظنون المستريبين ..

والصوفية يقولون لنا فى بعض كلامهم الجميل إن المحبة هى الموافقة أى الطاعة له فيما أمر ، والانتهاز عما زجر ، والرضا بما حكم وقدر . ولقد رضى كل منكما بما قدر له ربه وحكم .. فكان حقا على السماء أن تستجيب لدعائه بأن ينزل إليه ربه من الخير ما هو فقير إليه .. وهذا الدعاء المفضل لديك بالمناسبة هو من دعاء سيدنا موسى عليه السلام وقد ورد فى الآية ٢٤ من سورة القصص ، فى سياق قصته حين فر من مصر عقب قتله لمن كان يقتل مع أحد أبناء قومه وتوجهه إلى مدين خائفا يترقب داعيا الله أن يهديه سواء السبيل ، فرأى عند ماء مدين زحاما غفيرا وامرأتين تتراجعان عنه يائستين من السقيا ، فسقى لهما ثم آوى إلى الظل « فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » أى أنى فى حاجة إلى ما تسوقه إلى من خير ورزق فكانت هذه الضراعة بداية لما أنزل الله إليه من خير عميم بدأ بزواجه من إحدى الفتاتين .. وتوج بنزول الرسالة عليه فى طريق عودته لمصر حين آنس فى الطريق نارا ناحية جبل الطور فتوجه إليها ليأتى من عندها بخبر عن الطريق أو جذوة منها يستدفئ بها

أهله .. فإذا به يسمع نداء علويا يقول له : إني أنا الله رب العالمين !

فهنيئاً لكما ما أنعم به عليكما ربكما من خير عميم .. وبشرى لكما « بإصراركما » المشترك على نيل السعادة والحفاظ عليها وعدم التفريط فيها ، ذلك أنه بقوة الرغبة في السعادة وبالفهم الصحيح لحقائق الحياة وما يستحق منها أن يتمسك به الإنسان ويسعى إليه وما لا يستحق ذلك ، يكون عمق السعادة والهناء في حياته .. ويكون الأمل والعزاء عن كل الأحزان !

الكلمات المرورة!

أنا فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرى على قدر متوسط من الجمال وقدر كبير من العلم ، فأنا خريجة إحدى الكليات المرموقة وأجيد عدة لغات كما أنني متدينة إلى حد كبير وأؤدى كل الفروض الدينية وأرعى الله فى تصرفاتى .. وأبى رجل ناجح كل هدفه فى الحياة أن يوفر لنا ما نتمناه .. أما أمى فهى سيدة لا توصف بأفضل من أنها أم بكل معنى الكلمة .. وأنا إحدى ابنتين رزق بهما أبواى ، فعشنا معا حياة سعيدة كأسرة مترابطة ومتحابة والحمد لله . ولكى أصل معك إلى ما أرغب فى استشارتك فيه ، فإنه يجب أن أرجع إلى الورااء عشرين سنة .. حيث كانت لى خالة تصغر أمى بعام واحد ، وحدث أن تعرضت مع زوجها لحادث سيارة أليم أودى بحياتهما معا ولم ينج من الحادث المؤلم سوى طفلهما الوحيد وكان فى الثالثة من عمره فى ذلك الوقت ، ولما كان أبى يرغب بشدة فى أن يكون له ولد بعد أن رزق بابنتين ، فلقد أصر على أن ينتقل هذا الطفل البرىء للعيش معنا وأصبح منذ ذلك الحين أخا لنا ، وأصبحنا نحن الثلاثة سواسية بالنسبة لأبى وأمى ، واعتدت أن أسمع أمى تشير إليه فى حديثها

معى أو مع شقيقتى بكلمة « أخوك » فإذا أرادت أن تنبيهه إلى موعد المذاكرة طلبت منى أن أبلغ « أخى » بضرورة أداء الواجب المدرسى واستذكار الدروس ، وإذا مرض قالت لى : أعطى أخاك الدواء فى مواعده .. فلم نشعر فى يوم من الأيام بأى فارق بيننا وبينه ، وأحببناه كما تحب الأخت أخاها وأحببنا هو حبا عميقا وصامتا فى أغلب الأحيان لأنه قليل الكلام . ومرت بنا السنين وبلغنا سن الشباب وفهم الأطفال السابقون حقائق الحياة ، فلاحظت أن مشاعر الأخوة التى يحملها لى « أخى » هذا قد بدأت تتحول لديه إلى إعجاب مكتوم بى ، وأدركت ما طرأ على مشاعره من تطورات بالنسبة لى ، لكنى لم أعطه أية إشارة إلى فهمى لذلك ، إلى أن جاء اليوم الذى استجمع فيه كل شجاعته وصارحنى بما خشيت دوما أن يصارحنى به ، ووجدت نفسى أهرب من المواجهة وأقول له على الفور أنه أصغر منى بعامين ، لكن ذلك لم يكن يعنيه فى كثير أو قليل ، وظل على حبه لى يظهره لى تارة ، ويكتمه فى صدره تارة أخرى ، وظللت أنا على موقفى منه وهو أن ما يجمعنى به هو مشاعر الإخوة وحدها ، بالرغم من حبى لصحبته وجلسته وضحكته واهتمامى بكل شئونه .

ومضت فترة ظننت خلالها أنه قد برأ من الهوى .. وظننتنى أنا قد نسيت ما حدث ورجعنا شقيقتين محبين كما كنا دائما .. وتمت خطبتى لشخص يكبرنى ببضع سنوات وتجمعنا معا عوامل مشتركة عديدة كالمستوى الاجتماعى والثقافى والمادى فضلا عن مركزه ومستقبله الذى تحلم به أية فتاة . وأقمنا حفلا كبيرا للخطبة فى مكان عام ورأيتنى فى هذا الحفل سعيدة وكل من

حولى سعادة مثلى .. حتى أخى هذا رأيتة سعيدا بى وهنائى من قلبه وقدم لى هدية ثمينة من نقوده الخاصة لأن له مالا ورثه عن أبويه ويعمل عملا مرموقا . ومضت الأسابيع والشهور بعد الخطبة فوجدتنى لا أحس بالاقتراب ممن سوف ارتبط به إلى نهاية العمر بالرغم من حبه لى ، واقتناعى العقلى به ، وعلى الناحية الأخرى فلقد شعرت بأن حمى هواى قد عاودت « أخى » هذا مرة أخرى . وظهر لى أنها لم تفارقه من الأصل خلال الفترة التى ظننته قد برأ فيها منها . ورأيتة يتعذب فى صمت .. وتقلت منه الاشارات والكلمات المرورة التى يتحدث فيها عن قدره فى الدنيا ونصيبه .. والحرمان ممن يحب القلب ، وكيف تطالبه أقداره بأن يسعد لسعادة من يحبه ولو ضحى هو من أجله بسعادته الخ.. ووجدتنى متأثر بهذه الكلمات الحزينة المرورة .. ولا أبخل عليه فى بعض الأحيان ببعض الكلمات أو الهمسات الحميمة وبعد ذلك أشعر بعذاب الضمير وأتساءل أكون ما فعلته هذا خطأ أو بداية للخطأ .. وأسلم بأنه خطأ ، وأعتزم عدم تكراره لكنى أجدنى بالرغم من ذلك لا يطاوعنى قلبى على تركه وحيدا .. وهو الذى لا يتكلم إلا معى ولا يأكل إلا إذا كنت إلى جواره .. ولا يطمئن له جانب إلا إذا رآنى فى مجال نظره .. إننى أعرف أنه لا مجال للحب لأنه أخى ولأنه يصغرنى فى السن لكن ما حيلتى فى القلب يا سيدى !؟

إننى أصلى وأدعو ربى أن يرفع عنه هذا العناء وأن يلهمنى الصواب ، ويقول لى عقلى إننى إذا حاولت الاقتراب أكثر من خطيئى فسوف أنجح وأنا أعلم أنك مع العقل دائما وأنتك ترجحه

عند الاختيار بينه وبين غيره .. و « أخى » هذا فى نفس مستوانا العلمى وتربيتنا الأخلاقية فبماذا تنصحنى للتعامل الحكيم مع هذا الإنسان الذى هو جزء لا يتجزأ من قلبى ؟
ولكتابة هذه الرسالة أقول :

ومن الذى قال إن أحكام العقل لا بد أن تتعارض دائما مع أحكام القلب ؟ إنهما كثيرا ما يتوافقان وتوافقهما من علامات التوفيق الإلهى للموعودين بالسعادة فى الأرض ، غير أن أحد أسباب الشقاء الإنسانى هو أننا قد نضيع من أيدينا فى بعض الأحيان فرص السعادة الحقيقية التى تتوافق فيها أحكام العقل مع أحكام القلب ، لأننا ننكص عن طلبها فى الوقت المناسب ونتحمل تبعات ذلك بشجاعة ، أو لأننا فى أحيان أخرى قد نفضل أن ندور حول رغباتنا بدلا من الاعتراف بها لأنفسنا والمجاهرة بما نرغبه منها ولو تحملنا فى سبيل ذلك بعض العناء كضريبة ضرورية لنيل ما نريد ، أو لأننا قد نغمغم لأنفسنا بما نرغبه أحيانا ونترقب من الأقدار أن تهبه لنا بغير أن نبدو نحن ساعين إليه أو متلهفين عليه ، لأننا نخجل من طلبه أو المجاهرة به .. و « الخياط العظيم لا يقص كثيرا » كما يقول لنا الحكيم الصينى القديم لو- تسو . وإنما يمضى إلى هدفه المحدد بلا تردد فلا يقطع إلا ما يتطلبه تحقيق هذا الهدف ، أما نحن فإننا « نقص كثيرا » فى اتجاهات مختلفة وبعيدة عن الهدف الذى نتمناه صامتين ومنتظر من « يرغمنا » على السعادة التى نريدها فى أعماقنا .. وما تروينه لى فى رسالتك هذه مثال جديد على

« القص » بعيدا عن الهدف المنشود ، مما لا يثمر دائما سوى ضياع الجهد والوقت الثمين بلا طائل ، فأنت تكادين لا تفكرين أن مشاعرك العاطفية تجاه ابن خالتك لم تعد هي نفس المشاعر « الأخوية » السابقة بأى حال من الأحوال ، ولا تفكرين أنك قد بدأت تتجاوبين معه عاطفيا وتشعرين بأنه كما تقولين « جزء لا يتجزأ من قلبك » وتؤكدين أنك لا تستطيعين تركه وحيدا ، لكنك من ناحية ثانية ترجعين إلى « القص » فى الاتجاه البعيد عن الهدف وتقولين إنه لا مجال للحب بينكما لأنه « أخوك » ولأنه يصغرك فى السن !!

والحقيقة التى ينبغى لك أن تعترفى بها لنفسك وتحملى تبعاتها بشجاعة أدبية هو أن ما يربطك بهذا الشاب الآن لا علاقة له بالمشاعر « الأخوية » ولا بما يربط الأخ بأخته .. غير أنك تجفلين من الأقرار بذلك لأن تجاوبك العاطفى معه لم يبدأ للأسف إلا بعد أن ارتبطت بغيره وتمت خطبتك له ، وإلا بعد أن أتاحت لك فرصة اختبار المشاعر والمقارنة بين ما تشعرين به تجاهه .. وما لم تشعرى بمثله تجاه خطيبك ، وبالتالى فإن الإقرار بالحقيقة سوف تكون له تداعيات غير هينة على المستوى العائلى والاجتماعى ، منها ما سوف تشعرين به من حرج تجاه هذا الخطيب الذى لم يرغمك على القبول به ، وتجاه أبويك اللذين لم يفرضاه عليك ، وما يترتب على كل ذلك من أعباء فسخ الخطبة وتحمل اللوم العائلى من أسرة الخطيب وأسرتك على السواء .. وليس حديثك عن اختيار العقل الذى يتعارض مع اختيار القلب

سوى ضرب آخر من خداع النفس ، لأن فتاك لا يصغرك فى السن سوى بعامين فقط لا غير وهما فارق هين فى السن يمكن احتماله ولا يؤثر جديا على نجاح العلاقة الزوجية إذا استقرت سفينتك فى مرفئه .. كما أنه يماثلك فى المستوى العائلى والاجتماعى والعلمى ، ويفضل غيره بما ينطوى عليه لك من مشاعر أصيلة عميقة لا يبدو معها فى الأفق القريب أى احتمال لأن تتحول عنك أو تسلم باليأس منك .. كما أن علاقتك العائلية به أبدية ، ولسوف يظل موجودا بشكل أو بآخر فى أفق حياتك العائلية إذا تزوجت غيره .. وقد ينذر ذلك بتحول المشاعر المكتومة الآن إلى علفية غدا ، وقد يرشحك هذا للضعف العاطفى معه فى المستقبل ، ويورثك الندم على أنك لم تتحملى العاصفة مبكرا وتصحى مسار حياتك من قبل البداية ، فلماذا كل هذا العناء وتصحيح الأخطاء فى بدايتها أيسر كثيرا من محاولة تصحيحها بعد الزواج والانجاب ؟!

إن حياتك الآن من صنع يديك وعقلك وأفكارك .. وتستطيعين أن تحسنى الاختيار لها ، أو العكس ، ولست بناصحك بأن تتسرعى بفسخ خطبتك الحالية ومواجهة العاصفة العائلية التى لا مفر منها ، وإنما سأنصحك فقط بأن تواجهى نفسك مواجهة صريحة وحاسمة ، وأن تجرى معها حوارا عقلانيا هادئا تحددى بعده حقيقة مشاعرك تجاه هذا الشاب المتيم بك ، وحقيقة رغباتك بشأن حياتك ، فإذا أسفرت المواجهة عن رغبتك فى استكمال المشوار مع خطيبك ومحاولة بعث شرارة العاطفة فى قلبك تجاهه ، فعليك أن تتوجهى

بجماع نفسك إلى هذه المحاولة وأن تكفى عن كل ما يشرد بك بعيدا عنها أو يشوش عليها من قبيل الكلمات والهمسات الحميمة مع ابن خالتك وقضاء الأوقات الطويلة معه .. والتغلغل فى تفاصيل حياته وشئونه .. إلخ .. أما إذا أسفرت عن الاعتراف لنفسك بأنك تبادلين هذا الشاب مشاعره .. ويصعب عليك الافتراق عنه ، فلا بد أيضا من أن تمضى فى الطريق الذى يجمع بينك وبينه بالرباط المقدس وأن تتحملى تبعات هذا الاختيار بشجاعة وتدفعى ضريبته راضية .. فذلك أكرم وأفضل لك من التمرق العاطفى بين خطيبك وبين هذا الشاب الذى يبدو أنه قدرك فى الحياة كما أنك أنت بالمثل قدره ، وهو أيضا أكرم وأفضل لخطيبك من أن ترتبى به ومشاعرك العاطفية تتجه إلى غيره مما قد يرشحك للخطأ معه فى المستقبل .

لقد كان الأديب الفرنسى بلزاك يقول إن ميلاد الحب كولادة طفل .. عسير لكنه بهيج !

فلتكن إذن العاصفة العائلية الناجمة عن فسخ الخطبة إذا استقر اختيارك على ابن خالتك ، هى آلام هذه الولادة .. ولتكن بهجتها هى العزاء لك عنها .. وفى كل الأحوال فإنى لا أنصحك أبدا بالارتباط بشاب ما مهما تكن ميزاته .. ورضاء العقل عنه ، ومشاعرك العاطفية أسيرة لدى شاب آخر لا يعترض عليه العقل كذلك ، وتتوافر فيه أيضا كل المزايا ولا يعيبه « ظاهريا » فى نظرك سوى أنه يصغرك بعامين .. وإنك تخجلين من الاعتراف لنفسك بحبه بعد أن رفضته من قبل وارتبقت بغيره وعلم الجميع بهذا الارتباط المعلن .

الضوء الوحيد!

أنا من قراء هذا الباب وأستعين بما أتعلمه منه على مواجهة الظروف الصعبة التي حلت بى .. ولقد فكرت فى أن أكتب لك عن مشكلتى لكنى شعرت بالخجل لتضاؤلها بالقياس إلى ما سوف أرويه لك عن هذه السيدة التى أعترز كثيرا بأنها جدة طفلتى وأم زوجتى .

فأما هذه السيدة فلقد بدأت قصتها مع الحياة حين تزوجت فى سن مبكرة قبل أن تكمل دراستها الثانوية من ابن خالتها الضابط الشاب بالقوات المسلحة . وسعدت بحياتها معه وأنجبت منه ابنتها الكبرى وبعدها بعامين انجبت بنتين توءما ، ثم بعد عامين آخرين رزقت بولد ، فكان الفرحة الكبرى لأبيه وأمه . واكتملت سعادة الأسرة وواصلت حياتها الأمانة المطمئنة ، وتنقلت من مدينة إلى مدينة تبعا لظروف عمل الزوج ، ثم شاءت الأقدار أن يصاب الولد الوحيد لهذه الأسرة بالصفراء فى فترة إقامة الأسرة بمطروح نتيجة لحقنة غير معقمة ، فإذا بهذا الطفل الذى تنعقد عليه آمال الأسرة تتدهور صحته بسرعة رهيبة ، وإذا به يرحل عن الحياة وهو فى السابعة من عمره ، ويحزن الأب والأم على وحيدهما

حزنا عميقا لكنهما سرعان ما يتماسكان بعد فترة من الحزن الشديد .. ويقنع كل منهما الآخر بأن الحياة لا بد أن تستمر لأن لديهما ثلاث بنات يحتجن إلى أبويهن فيستعيدان توازنهما ويواصلان الحياة ، وبعد عدة سنوات أخرى يلاحظ الأبوان أن صحة بنتيهما التوئم ليست دائما على ما يرام . فهما تشعران بالارهاق لأقل مجهود تبذلانه ، ولا تستطيعان مجاراة زميلاتهما من البنات فى اللعب ويشعر الأبوان بالقلق عليهما فيصطحبانهما للطبيب ، وبعد الفحص الدقيق يتضح أنهما تعانيان من عيب خلقى فى القلب ويخضع الأبوان بدورهما للفحص فيتضح أن هذا العيب قد انتقل إليهما وراثيا عن طريق الأب ، لكن إصابة الأب لا تمثل بالنسبة له أية خطورة من الناحية الطبية ، وتبدأ الأسرة رحلة معاناة جديدة بين الأطباء والمستشفيات ، وتدهور صحة البننتين بسرعة عجيبة ، وينتهى بهما المطاف إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي تحت العلاج ، فلا يطول الوقت حتى تستسلم إحداهما للمصير المحتوم ، وتلبى نداء ربها ويفجع الأبوان فى زهرتهما التى لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، ويغادر الأب المستشفى ليقوم لابنته بالمراسم الحزينة ، ويرجع إلى المستشفى ليتابع حالة الأخرى ، فلا يكاد يصل إليه حتى يتلقى خبر رحيلها عن الحياة بعد شقيقتها بساعات ! ويسقط الأب المكلوم مريضا ويتم إدخاله العناية المركزة بنفس المستشفى وتصاب الأم بصدمة عصبية شديدة ، وتخضع للعلاج ويصدر القرار بعلاجهما فى لندن على نفقة القوات المسلحة ، وبعد رحلة علاج ليست طويلة يرجعان إلى الحياة مرة أخرى .. ويتساند كل منهما على الآخر .

ويركزان كل حبهما وعطفهما وحنانهما على الابنة الكبرى التي أصبحت الضوء الوحيد فى حياتهما . وكانت هذه الابنة قد استوت فى ذلك الوقت شابة جميلة وحزينة وقد أوشكت على إنهاء دراستها الجامعية وأدت امتحان الليسانس وراحت تنتظر نتيجته وفى هذه المرحلة من حياتها التقيت بها أنا لأول مرة على الشاطئ فى مطروح حيث اعتادت أسرتها أن تقضى بعض أيام الصيف ، وكنت أعرف من بعض الأهل والأقارب قصتها وما شهدته حياتها من أحزان ومآس فأحببتها حبا عظيما وأحبتنى هى أيضا بكل ما فى أعماق قلبها من قدرة على الحب .

ولأن والدها صديق لوالدى اللواء السابق بالقوات المسلحة أيضا فقد صارحت أسرتى على الفور برغبتي فى الزواج منها وأبدت أسرتى بعض التخوف من حكاية المرض الوراثى ، لكنهم إزاء حبي لهذه الفتاة لم يترددوا فى مباركة زواجى منها .

وتقدمت لوالد فتاتى طالبا يدها منه فرحب بى ، أما والدتها فلقد كانت فرحتها بسعادة ابنتها الوحيدة لا توصف وساعدتنى أسرتى على إتمام الزواج ، ويسرت لى كل الصعوبات وأحب أهلى عروسى الشابة حبا شديدا . وتزوجنا وهى زهرة متفتحة فى عامها الرابع والعشرين من عمرها . وأنا فى الخامسة والعشرين من عمري وبدأنا حياتنا الزوجية معا ، ونهلت من نبع الحب والسعادة مع زوجتى هذه ووجدت فيها إنسانة جميلة الروح طيبة القلب عطشى للسعادة والرغبة فى الإحساس بالأمان ، ولأننى قد تزوجت صغيرا فلقد سعيت إلى تحقيق مستوى أفضل من الحياة وسافرت للعمل بإحدى شركات البترول بدولة عربية ، ولحققت بى

زوجتى بعد فترة قصيرة ، وابتعدت لأول مرة عن أبويها فكان وقع الفراق عليهما وعليها شديدا لكن الحياة مضت بنا ، وبعد شهور حملت زوجتى وبدأنا المتابعة الطبية لحملها ، فلاحظت الطبيبة أن ضربات قلبها ليست منتظمة . وبعد الفحص بالموجات فوق الصوتية واستشارة أخصائي القلب أبلغنا الطبيب بأنها تعاني من تضخم بسيط فى إحدى حجرات القلب وأن الحالة لا تدعو للقلق ويمكن للحمل أن يستمر ولكن بشرط المتابعة الطبية المنتظمة . وفوجئت بأن زوجتى كانت تعرف عن نفسها هذه الحالة منذ توفيت شقيقاتها التوعم حيث شمل الفحص الطبى وقتها كل أفراد الأسرة ، ولم أشعر تجاه زوجتى بأى لوم لأنها لم تخبرنى بذلك من قبل فلقد كنت أعرف مأساة شقيقتيها وظروف أسرتها وأدركت الظروف النفسية التى عاشتها .

ومضت شهور الحمل طبيعية ورزقنا الله بطفلة جميلة وبعد عامين آخرين أصرت زوجتى على الحمل مرة ثانية واستشرنا طبيب القلب فى ذلك فأكد لنا أنه لا خطورة على الإطلاق من الحمل مرة ثانية وحملت زوجتى وأنجبنا طفلة ثانية وحرصت زوجتى طوال سنوات غربتها على أن ترجع إلى مصر مع طفلتيها كل فترة من الزمن لقضاء بعض الوقت مع والديها .

ورغم افتقادی الشديد لها وللطفلتين خلال غيابهن إلا أننى لم أعترض مرة واحدة على رغبتها فى العودة لزيارة أبويها ، ذلك أن وجود الطفلتين مع جدتهما وجدتهما قد أصبح المعنى الوحيد الباقي لهما فى الحياة ، ولقد أحبا الطفلتين حبا غامرا وسعدا بهما

سعادة طاغية حتى خيل إلى أن الحياة قد ابتسمت لهما أخيرا بعد طول تجهم .

وذات يوم وزوجتى فى مصر عرفت أنها مريضة فتوجهت إليها على الفور .. ووجدتها تتابع علاجها مع بعض الأطباء .. لكن العلاج لا يحقق أى تقدم ، فقررت أن أرجع بها إلى مقر عملى لعلاجها فى مستشفى الشركة العالمية التى أعمل بها ، وتم عرضها على أطبائه فشخصوا الحالة بأنها حالة التهاب مزمن فى أنسجة الجسم وحاولوا قدر جهدهم علاجها ، وأجروا عدة اتصالات مع المراكز المتخصصة فى أمريكا وإنجلترا بحثا عن علاج لهذه الحالة النادرة دون جدوى .. وواصلت صحة زوجتى تدهورها .. حتى بدأت نذر النهاية الأليمة تلوح فى الأفق وحين أدركت ذلك قررت العودة مع زوجتى إلى مصر .. وتم إدخالها مستشفى عين شمس التخصصى .. وبعد ٥ أيام فقط من عودتنا إلى بلادنا لبت زوجتى نداء السماء .. وانتقلت إلى رحاب ربها .

وبالرغم من ذهولى وأحزانى وحسرتى على زوجتى وطفلتى .. فلقد شغلت بعض الشيء عن كل ذلك ، بما حدث لصهرى وزوجته فلقد كانت الصدمة الرابعة فى حياتهما مروعة ومزلزلة لكل ما بقى من تماسكهما وصلابتهما .. وشهدت صهرى الرجل الطيب وهو يشتكى مذبوحا من الألم من أقداره ويتساءل دون جدوى : لماذا وأنا الرجل الصائم المصلى المزكى الحاج لبيت ربه لماذا ؟ لماذا ؟! أما الأم الثكلى فلا أستطيع مهما حاولت أن أصف لك حالتها وهى تشهد هذا الضوء الوحيد الباقي فى حياتها يذوى .. ويخفت إلى الأبد .. غير أنهما .. ويا للعجب لصمودهما ..

وقوة إيمانهما بربهما سرعان ما تماسكا واستعدا اتزانهما مرة أخرى وكأنما قد تحصنا ضد الصدمات ومفاجآت القدر ، ثم طلبا منى شيئا واحدا هو أن أترك ابنتي لديهما حين أرجع إلى غربتي ورجتني الأم المكلومة ألا أرفض ذلك وكيف أرفض يا سيدى رجاء هذه السيدة وهذا الأب وطفلتاي هما تعويض الأقدار الوحيد لهما الآن ؟

لقد قبلت الرجاء وتركت الطفلتين فى رعاية جديهما ورجعت إلى مقر عملى وأحزاني وأوجاعى .

وهما الآن يعتنيان بهما أشد العناية .. وقد أوقفنا كل مظاهر الحزن والحداد فى حياتهما من أجل الصغيرتين اللتين لا ذنب لهما فى هذه الأقدار المأساوية وأننى أكتب لك هذه الرسالة لكى توجه كلمة من كلماتك الحانية لهذه السيدة وهذا الرجل عسى أن تكون منديلا يجففان به دمعهما ، وهما لا يعرفان بأمر هذه الرسالة .. لكننى أرجو أن يكون فى كلماتك بعض السلوى وبعض العزاء لهما .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

اتساع المأساة قد يجمد الدمع فى العين أحيانا ليس زهدا فى الحزن أو تعففا عنه وإنما عجزا عن الوفاء بحق هذا الحزن الكبير من المشاعر والدموع .

وأحسب أن هذا كان حال هذين الأبوين المكومين حين انطفأ الضوء الوحيد فى ظلام أحزانهما الطويلة برحيل

زوجتك عن الحياة يرحمها الله ، والحق أنى لا أدري ماذا أقول
لهما .. واحزانهما تجل بحق عن العزاء غير أنى استعيد فى
حديثى إليهما ما قاله ابن السماك معزيا رجلا مصابا ببعض
ما أصيبا به فى إيجاز بليغ : إن الذى كان لك فى الدنيا سرورا
قد صار لك فى الآخرة أجرا .

وقول على بن أبى طالب رضى الله عنه معزيا آخر : إن
تحزن فقد استحققت ذلك منك الرحم .. وإن تصبر فإن فى الله
خلفا لك من كل هالك .

وقول ابن عباس لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما معزيا
إياه فى صغير له : عوضك الله منه ما عوضه الله منك !

والحق أننى لا أملك لهذين الأبوين المكلومين إلا أن أرجو أن
يكون « سرورهما فى الدنيا » الذى توارى وراء الحجب ، هو
أعظم الأجر لهما فى الآخرة بإذن الله .. وأن يعينهما الله على
أقدارهما الحزينة بإيمانهما العميق بربهما .. وبتسليمهما بما
جرت عليهما به المقادير وأقول لهما إن الله سبحانه وتعالى
الذى يجزى الصابرين بما صبروا قد شاءت رحمته بهما ألا
يغيب الضوء الوحيد عن حياتهما بغير أن يخلف مشعلا آخر
ينير ظلام الأحزان من حولهما ويجدد رغبتهما فى الحياة ..
ويجعل لهما هدفا يعيشان من أجله فأهداهما هاتين الحفيدتين
لكى يمتد بهما وجود الابنة الراحلة فى حياتهما ..

وقديما قال أبو العتاهية متعزيا :

إلا إن ريب الدهر يدنى ويبعد

وللدهر أيام تُذم وتُحمد

أقول لرئب الدهر إن ذهب يد

فقد بقيت والحمد لله لى يد

واليد التى بقيت فى حياة هذين الأبوين هما طفلتاك
الجميلتان اللتان وافقت أنت - فضلا منك ورحمة - على أن
تبقيا فى حضانة جديهما وتؤنسا وحدتهما وتشغلاهما عن
بعض أحزانهما بشئونهما الصغيرة ومتطلبات رعايتهما ..
وتبنى آمالهما وأحلامهما فى الحياة والمستقبل ..
وفى ذلك بعض العزاء ..

والشكر لك فى النهاية أن تفهمت عمق احتياج صهرىك
النفسى إلى وجود هاتين الطفلتين فى حياتهما .
والعزاء كل العزاء لهذين الأبوين الصابرين الصامدين
لأعاصير الحياة وشدائدها على إيمانهما بربهما .. وصبرهما
على مكاره الأيام ، فنعم عقبى الدار .. نعم عقبى الدار ..
والسلام .

بطاقات الدعوة!

أقرأ بريد الجمعة منذ فترة طويلة .. وألاحظ فى كثير من ردودك أنك تحاول جاهدا التخفيف عن بعض قرائك الذين يشكون لك ضياع بعض فرص الحياة منهم بعد أن تطلعوا إليها بشدة ، وانعقدت آمالهم عليها طويلا ، فتنصحهم بعدم التوقف أمام ما لم تسمح لهم به الحياة ، وبالتطلع إلى التعويض الإلهى لهم عن كل ما فاتهم من أسباب السعادة ، مؤكدا لهم أنه سوف يجىء إليهم حين تأذن بذلك السماء .. وأود أن أروى لك قصتى لعلك تجد فيها ما يفيد غيرى من القراء .

فأنا شاب فى منتصف الثلاثينات من عمرى ، أقيم فى مدينة ساحلية ، وقد تطلعت منذ بضع سنوات إلى الارتباط بشريكة الحياة ، فتقدمت لابنة رجل فاضل طالبا يدها .. ورحبت الاسرتان بهذا الارتباط .. وغمرتني أسرة الفتاة بحبها واهتمامها ، وأحببت فتاتى باحترام كامل وأحببت كل أفراد أسرتها .. وتبادلت الأسرتان الزيارات فى جو من الود والابتهاج ، وتم الاتفاق على كل التفاصيل .. وتحدد موعد الخطبة المباركة واشترت الشبكة التى سأقدمها لعروسى وطبعت بطاقات الدعوة وتم توزيعها على

أفراد الأسرتين والأهل والأقارب ، وقمت بتعليق إحدى هذه البطاقات على مدخل المكان الذى ستتم فيه الخطبة ، وتم إعداد كل المستلزمات للحفل البهيج واشترت فتاتى فستان الشبكة الجميل ، واستغرقت أنا فى الأحلام الوردية الجميلة أتخيل فتاتى وأنا أضع فى أصبعها دبلة الخطبة وأمى تترقرق عيناها بدموع الفرح ، ووالدتها مبتهجة والاخوة من حولنا سعداء .. وتسلمت « البدلة » التى سأرتديها فى حفل الخطبة وأعددت القميص وربطة العنق والجورب والحذاء اللامع ، ولم يتبق سوى يومين فقط على الحدث السعيد ، فإذا بوالد فتاتى يتصل بأسرتى ويعتذر لها فجأة عن عدم إتمام الخطبة بدون أية أسباب واضحة سوى هذه العبارة المبهمة « ليس هناك نصيب ! »

وحاولت مع والد فتاتى بكل السبل أن أعرف منه سببا محددا للرفض المفاجئ فلم أنجح فى ذلك .. وتخيلت حرجى الشديد مع الأهل والأصدقاء الذين دعوتهم لحضور الخطبة .. وكيف سأبرر لهم إلغائها ، فتوسلت لوالد فتاتى أن يحفظ على كرامتى وأن يقبل بإتمام الخطبة فى أضيق الحدود حتى ولو كانت النية قد انعقدت لديه على رفض ارتباطى بابنته ثم بعد فترة قصيرة يقوم هو بفسخها بأى مبرر لا يسىء إلى ولا إلى الفتاة ، كالزعم مثلا بأننا قد اختلفنا حول بعض الماديات أو حول مقر اقامتنا بعد الزواج خاصة أن أسرة فتاتى تقيم بالقاهرة وأسرتى تقيم بالمدينة الساحلية ، وحاول الأب فيما علمت إشفافا منه على موقفى أن يفعل ذلك لكن ابنته رفضت ذلك رفضا باتا ، وأصرت على عدم إتمام الخطبة بأى شكل من الأشكال رغم توسل الجميع لها

بالعدول عن موقفها ، ورغم رجائهم لها بالقبول حرصا على كرامة شاب لم يسيء إليها فى شىء .. وسلمت أمرى لله .. وألغيت حجز المكان المقرر لاقامة حفل الخطبة .. واعتذرت على استحياء لمن سبق لى أن دعوتهم من الأصدقاء والزملاء إلى الحفل ، وتولت أسرتى الاعتذار عنى للأهل والأقرباء .. وكان موقفا عصيبا لا أتمناه لأى إنسان فى الوجود .. وشعرت أنا بطعنة دامية فى قلبى وكرامتى .. وتساءلت متألما عما دعا فتاتى وأسرتها للقبول بى ثم إلى رفضى بهذه الطريقة المهينة ، وماذا أخطأت فيه .. وماذا جنيته حتى أتعرض لهذه المحنة ؟ ثم علمت من بعض الأهل أن فتاتى ووالدها قد علما بأنى مصاب بأحد الأمراض الخلقية التى تلازم المرء طوال حياته ، لكنها لا تضره ولا تؤذيه ما دام يعيش حياته ، محافظا على نفسه من أية مخاطرة قد تؤدى إلى جرحه ، وتعجبت لما سمعت وقد صارحت فتاتى فى بداية تعارفنا بكل ذلك وأطلعت أسرتها على نتائج التحاليل الخاصة بى ، واتصلت الأسرة بطبيبى المعالج فطمأنهم على حالتى ، وأكد لهم أنه لا خوف من إتمام الزواج وأن الحالة التى أعانيها ليست مخيفة ولا تتطلب منى سوى الاحتراس فقط ، وأنه حتى لو استدعى الأمر إجراء جراحة ذات يوم فالعلاج معروف والشفاء مضمون بإذن الله .. وما أكثر ما يتزوج أمثالى كل يوم وينجبون ويعيشون حياتهم فى سعادة وأمان .

وانطويت على أحزانى .. وواصلت حياتى محاولا نسيان ما حدث .. واعتزمت ألا أعرض نفسى لهذه التجربة القاسية مرة أخرى ، غير أن الأيام مضت بخيرها وشرها .. وراح الأهل يلحون

على من جديد بالبحث عن شريكة الحياة .. فتقدمت لفتاة أخرى حاملا معى تقاريرى الطبية وقبل أن أطلب يدها أطلعتها على حالتى ، وطلبت منها أن تسأل كبار الاخصائيين عن هذه الحالة قبل أن تجيبنى بالرفض أو القبول ، وتركت التقارير لديها راجيا فقط استعادتها فى الحالتين ، وأمضيت فترة الانتظار مترقبا ومؤملا فى رحمة الله سبحانه وتعالى ألا تتخلى عنى هذه المرة ، وبعد أيام فوجئت بمن يدعونى لزيارة الأسرة والتقدم رسميا لطلب يد ابنتها ، لأن الأسرة قد استشارت كبار الاخصائيين بالفعل فأكدوا لها صلاحيتى للزواج بلا مخاطر .. وسعدت بذلك سعادة كبيرة واعتبرته تعويض السماء لى عما تجرعته من آلام سابقة بلا ذنب جنيته .. وأقيم حفل الخطبة فى موعده هذه المرة بلا مفاجآت ولا أحزان ، وأثبتت لى تجربة الأيام أن السماء قد اختارت لى هذه الفتاة لى تعوضنى عن كل ما تأملت له من قبل ، وأنها « السعادة المدخرة » التى تقول أنت فى بعض ردودك أن السماء قد تحتفظ بها فى علم الغيب لى تهبها لمن يستحقها فى الوقت المناسب .

وتزوجنا وسعدنا بحياتنا معا ، وازداد ارتباطنا وعمق تفاهمنا على مر الأيام وبعد عام من الزواج وهبنا الله طفلا جميلا ملأ حياتنا بهجة وسرورا ..

أما فتاتى الأولى فلقد مضت فى طريق آخر وتزوجت غير أنى قد علمت أنه لم يستقر لها حمل منذ زواجها بالرغم من تكراره والتزامها الراحة التامة فى الفراش فى كل مرة ولم أسعد بذلك ولم أفرح له ، كما قد يتصور أحد إذ ماذا يفيدنى ذلك وقد افترقت

بنا الطرق وسار كل منا فى اتجاه مختلف ، غير أنى أتساءل
بالرغم من كل ذلك هل ما تعرضت له فتاتى السابقة هو عدالة
السماء .. أو انتقامها منها لخذلانها لشاب تقدم إليها طالبا السعادة
معها ولم يخف عنها من أمره شيئا ؟

إن حزن هذه السيدة لن يسعدنى .. وليس لى فيه يد ولعلها لو
اتجهت إلى الله سبحانه وتعالى بنفس راضية أن يغفر لها ما فعلته
بى فقد يغفر لها ويرزقها النسل الصالح .. وكل ما أرجوه هو ألا
تسئ الظن بى وتتوهم أنى شامت فيها .. بعد ما كان من أمرها ..
والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الخطأ الحقيقى فى قصتك مع فتاتك السابقة هذه ، ليس فى
تراجعها عن إتمام مشروع الارتباط بك لأسباب رأتها حتى
ولو اختلفنا معها فيها ، وإنما فى توقيت إعلانها لك هذا
الانسحاب المباغت قبل يومين فقط من حفل الخطبة وبعد
إتمام كل الاستعدادات لها وتوزيع بطاقات الدعوة لحضورها ،
فالتعارف العائلى بهدف الارتباط هو فى النهاية مشروع
اتفاق قابل للاستكمال والمضى به إلى غايته ، وقابل أيضا
للرجوع عنه من جانب أحد الطرفين أو كليهما لأية أسباب
يقدرانها ، ولقد شرعت الخطبة أصلا لى تكون فترة للتعارف
الحميم واختبار المشاعر .. وامتحان كل طرف لرغبته فى
الآخر ، فإذا جاءت مؤشرات إيجابية مضى فى مشروع
الارتباط إلى نهايته وإذا لم يحدث ذلك اعتذر عن عدم اتمامه ،

وبحث عن غايته فى طريق آخر ، وليس يضير أحدا أن يفشل مشروع خطبته لأحد إذا روعى فى ذلك الالتزام بالأعراف السائدة واحترام المشاعر والكرامات .. ولهذا فإننا لا نلوم أحدا بمجرد أنه قد فسخ ارتباطه بآخر لأسباب رآها .. حتى ولو لم تكن عادلة أو مقنعة للآخرين ، لأن كل إنسان أدرى بما يحتاج إليه ولأن من لا يصلح لإنسان قد يصلح لغيره .. لكننا نلوم فقط من لا يراعى اعتبارات الآخرين وكراماتهم ومشاعرهم عند اتخاذ مثل هذا القرار وخطأ فتاتك السابقة الحقيقى يتمثل فى تردها فى اتخاذ القرار بالقبول بحالتك الصحية التى لا خطر فيها عليك بشرط الاحتراس والالتزام ، أو بالاعتراف بعدم رغبتها أو قدرتها على المخاطرة ومعايشة التجربة بجوانبها المختلفة ، والواضح هو أنها قد ترددت بين القبول والرفض غير المعلن طويلا حتى إذا ما اقترب موعد إعلان الخطبة وأوشك الأمر أن يخرج إلى العلن .. انتصرت لديها نوازع النفس التى ترجو لصاحبها الأفضل والارفع دائما من كل الأشياء .. وتشفق عليه من القبول بأية مخاطرة ولو كانت هيئة فباغتت الجميع بتراجعها عن الخطبة وتصرفت فى ذلك وفقا لما يتفق مع اعتباراتها الذاتية وحدها ، وبغير أن تضع فى حسابها أثر هذا القرار المباغت على الطرف الآخر فى الارتباط أو على مشاعره وكرامته الشخصية ومشاعر أسرته وكرامتها ..

والفضلاء من الناس هم من لا يتخذون قراراتهم واختياراتهم وفقا لاعتباراتهم الشخصية وحدها ، بغض

النظر عن انعكاساتها على مصالح الآخرين ومشاعرهم وكرامتهم .

وإنما يحاولون دائما أن يضعوا اعتبارات الآخرين في حساباتهم وان يخففوا بقدر الامكان من تعارض رغباتهم ومصالحهم مع رغبات الآخرين ومصالحهم ، وقد يضحون في سبيل تجنب إيلاام الآخرين والتخفيف عنهم بتحمل بعض العناء .. ولا عجب في ذلك لأن الحياة لا تستقيم إذا انطلق فيها البشر كالوحوش الضارية يسعون وراء أهدافهم ورغباتهم وحدها بلا قيود ولا حدود وبغير أن يضعوا في حسابهم حقوق الآخرين ومشاعرهم واعتباراتهم ..

وكل ما تعرضت له من آلام وجرح للمشاعر والكرامة لم ينجم عن رفض هذه الفتاة للارتباط بك تخوفا من حالتك الصحية .. ولو كانت قد فعلت ذلك بشكل كريم خلال فترة التعارف الأولى لما لامها أحد على اختيارها ، وإنما نجم أساسا عن أنها قد ضحت بكل ما تمثله لك ولأسرتك هذه الخطبة من اعتبارات بعد إعلانها للآخرين ، وجابهتمكم جميعا بالخدلان بعد أن عرف الجميع موعدها . ولقد كانت تستطيع أن تخفف كثيرا من وقع الصدمة عليك لو كانت قد قبلت باتمام الخطبة شكليا ، ثم فسخها في هدوء بعد حين ، لكنها آثرت ألا تضحى بشيء من نفسها لاصلاح خطأ ارتكبه حين ترددت طويلا قبل حسم اختيارها .. فإذا كان لا يسعد أية فتاة بالفعل أن تكون لها سابقة خطبة فاشلة حتى ولو كانت هي التي رغبت في إنهاؤها ، وإذا لم يكن من اليسير بالفعل على أية فتاة أن

تجابه الجميع فى حفل عام لخطبتها وهى تضرر فى نفسها فسخها بعد أيام أو أسابيع .. فلقد كان من واجب هذه الفتاة أن تضحى من نفسها بعض الشيء بقبول هذا العناء إبراء لذمتها تجاه الشاب الذى لم يخطئ فى حقها ، ولم يرتكب إثما حين طلب السعادة معها بالطريق المشروع .. ولا ذنب له فى حالته الصحية التى أثارت هواجسها .. وبالرغم من ذلك فلست أرى لك وقد عوضك الله عنها خيرا وسعدت بحياتك الجديدة وانجبت طفلا جميلا .. وأثبتت الأيام أن حالتك الصحية لا تحول بينك وبين السعادة والأمان ، لست أرى لك أن تظل منشغل الخاطر بمن رفضتك من قبل وألمتك حتى ولو كان هذا الانشغال بعقد المقارنة بين توفيق الله سبحانه وتعالى لك فى حياتك الشخصية ، وتعثر حظ فتاتك السابقة ، مع الحمل والانجاب .. ذلك أنه حتى المقارنة ليست من حسن شكر الإنسان لربه على ما أنعم به عليه من نعم جليلة ، لأنها لا تفيد الشكر وحده .. ولا الاشفاق على الغير وحده .. وإنما تفيد أيضا - ولو بطريقة لا شعورية - شبهة الشماتة والتشفى فى حظوظ من ظلمونا وجرحوا مشاعرنا وآثروا غيرنا علينا .

ولو لم تكن تفيد ذلك لما ذكرناها فى موضع ذكر اساءات من أساءوا إلينا ، ولا كتفينا بالشكر على النعم .. ورجونا للآخرين مثل ما نعمنا به ، فالصفح الحقيقى هو النسيان التام ومرور الأعوام علينا بغير أن نتذكر من أساءوا إلينا أو ننشغل بتتبع حظوظهم فى الحياة .. والشماتة فيهم أو الرثاء

لهم .. لأنه حتى هذا الرثاء لا يخلو من شبهة الاعتداد
بحظوظنا بالمقارنة بحظوظهم في الحياة ، اللهم إلا إذا كان
خالصا لوجه الله .. وكل ذلك ليس من الصحة النفسية ولا من
السلام النفسي في شيء .. فلا تسمح لهذه المشاعر السلبية
بأن تفسد عليك صفاء نفسك وحسن شكرك لربك على
تعويضه العادل لك عما تعرضت له من قبل ودافع عن
سعادتك بتطهير النفس من كل الشوائب عسى أن يكون ذلك
هو شفيئك عند ربك أن يحفظ عليك نعمه ويجزل لك منها
العطاء ..

البيت الجديد!

أنا شاب من أبناء الجنوب شئت لى الأقدار أن أكون طرفا فى قصة من هذه القصص المؤلمة التى أحرص على قراءتها فى بابك بانتظام ..

فلقد نشأت فى أسرة صعيدية مترابطة . وتزوج شقيقى الأكبر منذ بضع سنوات ، وأقام مع أبى وأمى فى البيت الكبير كما نسميه أى بيت الأسرة .. وتزوجت شقيقاتى واستقرت بهن الحياة فى بيوت أزواجهن فى الجوار القريب ، وأنجب شقيقى الأكبر من زوجته طفلين صغيرين ، وسعد بحياته وزوجته وسعدت هى به .. ثم فجأة تزلزل كيان هذا البيت بمصرع شقيقى هذا منذ عام ونصف عام فى حادث سيارة خلال عودته من مدينة الأقصر التى كان يعمل بها .. وخيم الحزن على الجميع وسقطت زوجة أخى فى غيبوبة شبه متصلة .. ووفقا للتقاليد فقد استمرت زوجة أخى مقيمة فى بيت الأسرة مع طفليها الذى يبلغ عمر أكبرهما ٦ سنوات والأخرى ٤ سنوات ، وبعد إحياء ذكرى الأربعين بأيام جاء أهل زوجة أخى ليصطحبوها معهم إلى بيت أسرتهم كالعادة حين يكون الأطفال صغارا . ولا أدري ماذا فعل أبى معهم أو ماذا

قال لهم لكى يقنعهم بترك ابنتهم مع طفليها بعض الوقت فى بيتنا لكنهم على أية حال قد قبلوا بعد رجاء وإلحاح تركها لبعض الوقت على أن يرجعوا لاصطحابها معهم بعد هذه المهلة الجديدة بلا أى تأجيل .. وبعد انصرافهم فوجئت بأبى يدعونى للحديث معه على انفراد ثم يرجونى والدمع المتجمد فى عيونه ، بأن أتزوج أرملة شقيقى الراحل لكى تظل هى والطفلان فى بيتنا وتمضى الحياة بهم وبنا على ما كانت عليه قبل الحادث المؤلم ..

ولم أجب أبى بالرفض أو القبول عند سماعى هذا الرجاء المؤلم ، وغلبنى الاحساس بالحزن على أخى الذى كان صديقى وتوعم روحى ، فانعقد لسانى ولم يضغط على أبى لكى يتعجلنى الرد وإنما قال لى إنه يدع لى الأمر للتفكير فيه ويأمل أن أضع مصلحة الطفلين اليتيمين ورغبته ورغبة أمى فى ألا يفارقاهما فى اعتبارى . ومضت بضعة أيام أخرى وأنا مستغرق فى التفكير ، أريد أن أحقق لأبى وأمى رغبتهما فى أن ينشأ أحفادهما فى أحضانهما .. وأتخيل من ناحية أخرى نفسى فى موضع أخى من زوجته فأخجل من الفكرة وأنزعج لها .. إلى أن كنت جالسا فى غرفتى ذات يوم أقرأ الصحف فى الصباح فدخلت أرملة أخى إلى الحجرة ورجتني أن أعقد قرانى عليها فقط لكيلا تغادر بيت الأسرة ، ولأن أهلها إذا أعادوها إلى بيتهم فلسوف يضغطون عليها بشدة للزواج مرة أخرى ولن تمضى ستة أشهر أو عام على أكثر تقدير إلا وتكون قد تزوجت من آخر رغبت فى ذلك أم لم ترغب ، ولهذا فهى ترجونى أن أعقد قرانى عليها « فقط » لكى أحميها من ذلك وأعين طفليها على البقاء بين أهل أبيهما ، وعلى ألا

يكون لكل منا شأن بالآخر بعد عقد القران لأنها لا تريد الزواج بعد أخى وترغب فى أن تتفرغ لتربية طفلها منه !

ولم يكن أمامى من سبيل بعد هذه المصارحة سوى القبول ، استجابة لرغبة أبى وأمى .. وجاء أهلها بعد أيام ليصطحبوها معهم ، فقال لهم أبى إنه لا داعى لذلك لأن ابنه الآخر سوف يتزوج أرملة أخيه ويربى ابنه ورحب الأهل بذلك .. وانتظرنا انقضاء فترة العدة .. وما أن انتهت حتى جاء المأذون وعقد قرانى عليها .. وبعد القران دخلت هى حجرتها ودخلت حجرتى وفى الصباح غادرت البيت وتوجهت إلى الاسكندرية حيث يقيم بعض أقاربى ويعملون ، وقضيت فى الثغر تسعة شهور كاملة عملت خلالها مع أقاربى ثم علمت أن أبى مريض فعدت إلى بلدتى لزيارته والاطمئنان على أحواله وأحوال أمى ، واستقبلتنى « زوجتى » بالمصافحة العادية كما كانت تفعل معى وهى زوجة لأخى ، وعلمت أن أمى على خلاف معها منذ علمت أن كل ما بيننا هو وثيقة الزواج فقط .. ووجدت العلاقة متأزمة بينهما للغاية فوفرت لزوجتى مسكنا مستقلا قريبا وانتقلنا إليه ، وأصبح من واجبى أن أبيت معها فى البيت الجديد لكيلا أدعها وأدع طفلها وحدهم فيه ، ومضت حياتنا فى البيت الجديد هادئة .. فزوجتى تعد الطعام وتغسل الملابس وترعى الأطفال .. وأنا ألبى مطالبها من الخارج وأرعى مصالح البيت وأرعى الابنين اللذين لا يعرفان لهما أبا غيرى .. وأؤدى عملى ، وفى المساء يدخل كل منا غرفته ويغلق بابها عليه للصباح .

وبعد فترة من الوقت تساءلت عما يدعونا للاستمرار على هذا

النحو إذا كانت الحياة قد جمعت بيننا تحت سقف واحد ولكل منا مصلحة أساسية فى رعاية هذين الطفلين .. وقررت بعد تردد طويل أن أفاتها فى أن نحول زواجنا الشكلى إلى زواج حقيقى .. وفعلت ذلك ففوجئت بها تبكى بشدة وتقول لى أنها قد اتفقت معى من البداية على هذا الوضع ، وبحيث تعيش لطفليها وعلى ذكرى زوجها ، وإنى أستطيع إذا رغبت فى الزواج الحقيقى أن أتزوج من غيرها ولن تعترض على ذلك بل إنها تستطيع أن ترجع للإقامة فى بيت أبى لى يخلو لى هذا المسكن لأتزوج فيه !

وشعرت بالخجل والحياء لردّها هذا .. ولم أشأ أن أخرجها أو أخرج نفسى أكثر من ذلك فسكت ، ومضت بنا الحياة « وزوجتى » لا تعترف بى عمليا زواجا لها ، وطفلاها ، لا يعرفان لهما أبا سوى .. فماذا أفعل يا سيدى .. إن والدتها تنصحنى بالصبر عليها ، وشقيقها يقول لى أن كل شىء مرهون بالصبر ، وهى تنصحنى بالزواج وتؤكد لى أنها ستكون سعيدة بحياتها فى هذه الحالة بشرط أن أحتفظ بها فى عصمتى .. وأنا لم أعد أعرف ما هو الخطأ وما هو الصواب .. فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من حقا بالفعل أن تتطلع لأن تحيا حياتك بطريقة طبيعية وتستغنى بزواجك عن غيرها من النساء ، ما دامت الأقدار قد جمعت بينكما فى رباط مقدس ولكل منكما مصلحة مؤكدة فى استمراره إلى النهاية .. أما « الاتفاق » المبدئى بينكما على أن يكون زواجكما شكليا حتى لا تخرج زواجك وطفلاها من أحضان أسرتك ، فليس مما يعتد به كشرط دائم يعتبر من

خالفه كمن نقض العهد وخان الوعود .. لأنه شرط فاسد دعت إليه الضرورة النفسية في الظروف المأساوية التي أحاطت بهذا الزواج .. وربما لو لم تشترطه هي لما راودت نفسك على الارتباط بها متخلصا من الحرج الإنساني المفهوم في مثل هذه الظروف ، ولما استطاعت هي أيضا أن تتغلب على مشاعرها وأحزانها وخرجها النفسي لتقبل به . غير أن الواقع حتى ولو استعنا في البداية على القبول به بالتحايل على أنفسنا بمثل هذه المبررات والحيل النفسية ، لا يلبث أن يرغمنا على أن نحيا حياتنا بطريقة طبيعية ، وعلى أن نتقبل بعد حين ما كنا ننكره أو نستفظعه من حقائق الحياة قبل وقت قصير . ولهذا فإن تمسك زوجتك بهذا الشرط الفاسد حتى الآن هو الذى يعد خروجاً على الاتفاق الضمنى المفهوم بغير تصريح بين الطرفين حين تم الزواج وليس تفكيرك فى تحويله إلى زواج حقيقى يلبي لك احتياجاتك النفسية والعاطفية هو الخروج على مثل هذا الاتفاق الصامت .

كما أن تصريحها لك بالزواج من غيرها مع بقائها فى عصمتك ، ليس حلاً مقنعاً للمشكلة .. ذلك أنه ليس كل إنسان قادراً على أن يحيا حياة مزدوجة يتنقل فيها بين زوجتين حتى ولو كانت علاقته بإحدهما شكلية ولأن الزواج مسئولية نفسية وأدبية واجتماعية قبل كل شيء .. وقليلون هم الذين يطبقون تعدد هذه المسئولية فى حياتهم . كما أن وجود زوجتك فى عصمتك لن يرشحك بسهولة للاستقرار والسعادة مع زوجة أخرى ، ولن يكون ذلك الوضع مقبولا ولا مريحا لمن

تقبل الارتباط بك وإنما سوف يظل بؤرة للمتاعب والقلق
بينكما على الدوام حتى ولو أقسمت لها أغلظ الأيمان أنه
لا يجمع بينك وبين الأولى من مقاصد الزواج سوى الحماية
والمسئولية ورعاية الأبناء . وليس من المستبعد كذلك أن ينبه
زواجك المقترح هذا لدى زوجتك الأولى مشاعرها الأنثوية
 واحتياجاتها النفسية الخاملة حاليا تحت ركام الأحزان ..
فتساءل : وماذا يمنعها بعد كل هذا الوقت من رجلها وهو
زوجها أمام الله والجميع ، فيحركها ذلك لاجتذابك إليها ..
أو يحفزها للاحتفاظ بك إذا استشعرت خطر فقدك النهائي
واستئثار الأخرى بك .. وليس كل ذلك بمستغرب على النفس
الشرية التي لا تستشعر في بعض الأحيان قيمة ما لديها إلا
من خلال تقدير الآخرين له !! فلماذا كل هذا العناء .. وقد يسر
لنا الله سبحانه وتعالى أن نحيا حياتنا الطبيعية بلا مشاكل
ولا اضطرابات ؟

إننى أتصور أن ما يحول بينك وبين زوجتك الآن هو قرب
الذكرى وبطء التكيف مع الواقع الجديد الذى فرضته عليها
الأقدار الحزينة . لكنها فى غمارهما بنفسها وأحزانها ينبغى
لها أيضا ألا تظلم شابا أمينا مثلك قبل أن يضحى بأحلامه
الشخصية رعاية لاعتبارات إنسانية وعائلية نبيلة وتعفف
عن الضغط على زوجته لنيل ما يصبو إليه منها مراعاة
لظروفها النفسية والإنسانية ، وإنما لابد أن يدعوها ذلك إلى
مراجعة موقفها منه .. وبراء ذمتها من ظلمها له ومطالبته بما
لا يطيقه .. ولا شك أن المشكلة القائمة حاليا بينك وبين
زوجتك هى فى النهاية مشكلة وقتية لن يلبث الزمن أن يجد

لها الحل الموفق لها بمبضعه الذى لا يخيب .. فاعتصم بالصبر يا صديقى .. ولا تستجب الآن لنصيحة زوجتك لك بالزواج من غيرها لأنك لن تسعد فى مثل هذا الزواج المقترح .. وإنما أصبر وانتظر .. ولا تدفع الأمور بأكثر مما تحتمله ظروف زوجتك النفسية الحالية وتأكد من أن لك لدى زوجتك القبول النفسى الذى يصلح أساسا كافيا لعلاقة الزواج السليمة بعد حين ، بدليل توجهها لك بالرجاء لأن تعقد قرانك عليها لكيلا تغادر بيت الأسرة ، حتى ولو كانت قد اشترطت عليك أن يكون زواجك بها صوريا .. ففى تقديرى أنها لو لم تكن تقبل بك نفسيا من البداية لما سعت لأن ترتبط بها مثل هذا الارتباط ولتحملت العودة إلى أهلها ومواجهة ضغوطهم للزواج مرة أخرى لأن ذلك أرفق بالمرأة من ارتباطها بأى نوع من الارتباط بمن تنفر منه ولا تطيق وجوده فى دائرة تنفسها ، لكنها فقط هذه « الاشكالية الإنسانية » التى لم تستطع بعد التكيف معها وهى أن تحل أنت منها محل أخيك الراحل فى هذا المدى الزمنى القصير ، وهى اشكالية الزمن وحده هو الكفيل بحلها .. فأرجو ألا يطول بك الانتظار لمفعوله السحرى لكيلا تتجرع عذاب الحرمان ممن تشاركها الحياة لفترة طويلة .. فإذا طال الانتظار عما تطيقه أو بدا لك أن زوجتك تصر بالفعل على مخالفة الطبيعة وعدم التكيف مع الواقع الجديد إلى النهاية ، فلا مفر فى هذه الحالة من الزواج مرة أخرى وتحمل هذا العناء الجديد الذى ستفرضه عليك هذه الظروف الإنسانية .. كما فرضت عليك من قبل هذه التضحية العائلية ..

لها الحل الموفق لها بمبضعه الذى لا يخيب .. فاعتصم بالصبر يا صديقى .. ولا تستجب الآن لنصيحة زوجتك لك بالزواج من غيرها لأنك لن تسعد فى مثل هذا الزواج المقترح .. وإنما أصبر وانتظر .. ولا تدفع الأمور بأكثر مما تحتمله ظروف زوجتك النفسية الحالية وتأكد من أن لك لدى زوجتك القبول النفسى الذى يصلح أساسا كافيا لعلاقة الزواج السليمة بعد حين ، بدليل توجهها لك بالرجاء لأن تعقد قرانك عليها لكيلا تغادر بيت الأسرة ، حتى ولو كانت قد اشترطت عليك أن يكون زواجك بها صوريا .. ففى تقديرى أنها لو لم تكن تقبل بك نفسيا من البداية لما سعت لأن ترتبط بها مثل هذا الارتباط ولتحملت العودة إلى أهلها ومواجهة ضغوطهم للزواج مرة أخرى لأن ذلك أرفق بالمرأة من ارتباطها بأى نوع من الارتباط بمن تنفر منه ولا تطيق وجوده فى دائرة تنفسها ، لكنها فقط هذه « الاشكالية الإنسانية » التى لم تستطع بعد التكيف معها وهى أن تحل أنت منها محل أخيك الراحل فى هذا المدى الزمنى القصير ، وهى اشكالية الزمن وحده هو الكفيل بحلها .. فأرجو ألا يطول بك الانتظار لمفعوله السحري لكيلا تتجرع عذاب الحرمان ممن تشاركها الحياة لفترة طويلة .. فإذا طال الانتظار عما تطيقه أو بدا لك أن زوجتك تصر بالفعل على مخالفة الطبيعة وعدم التكيف مع الواقع الجديد إلى النهاية ، فلا مفر فى هذه الحالة من الزواج مرة أخرى وتحمل هذا العناية الجديد الذى ستفرضه عليك هذه الظروف الإنسانية .. كما فرضت عليك من قبل هذه التضحية العائلية ..

خريف الحرمان!

لست أعتقد أن مشكلتي مشكلة شخصية بحتة .. لأنى أثق فى أن كثيرين من الرجال فى مثل عمري يواجهونها بشكل أو بآخر ويعانونها إما فى صمت .. أو فى ضجر يدفعهم لارتكاب الأخطاء التى يحاسبون عنها دون النظر إلى مادفعهم إليها .

فأنا رجل فى الواحدة والستين من عمري وإن كان كثيرون يظنون أننى أصغر من سنى لأننى كنت رياضيا فى شبابى وأحافظ على صحتى بقدر الإمكان ، وأنا حاليا بالمعاش لكنى أشغل جزءا من نهارى بوظيفة لا بأس بها توفر لى ، إلى جانب معاشى ، حياة طيبة نسبيا من الناحية المادية ، ولقد كافحت طوال حياتى بكل ما أوتيت من قوة لتوفير حياة سعيدة لأسرتى المكونة من زوجة طيبة وولدين وابنة رزقنا الله بهم كثرة لزواج سعيد دام حوالى ثلاثين عاما ، ووفقنى الله خلال هذه السنوات بمعاونة زوجتى فى تنشئة أولادى تنشئة صالحة وتخرجوا فى كلياتهم المرموقة ورزقنا الله من فيض نعمته ما مكنتنا أنا وزوجتى - الأم الحنون لأبنائهما - من مساعدة هؤلاء الأبناء على الزواج والاستقرار فى بيوتهم جميعا والحمد لله .

ولقد اعتقدت بعد زواج الأبناء أننى وزوجتى سوف نبدأ فى تمضية ما تبقى لنا من العمر فى سعادة وفى الاستمتاع بالحياة وتعويض أنفسنا عن التضحيات التى بذلناها معا طوال مشوار الحياة لصالح أبنائنا ، لكن ما حدث كان غير ذلك .. فلقد بدأت زوجتى فى الاستغراق فى دور الجدة العجوز لاحفادنا الصغار بشكل مغالى فيه بالرغم من أنها تصغرني بثمانى سنوات ، وأصبحت تعتبر أية مداعبة أو كلمة غزل لها تصرفا صبيانيا من جانبي .. أو علامة من علامات « الخرف » التى تدهمنى وصارت تحاول بشتى الطرق والذرائع أن تتحاشانى وتتباعد عني حتى أصبحت أشعر أننى أعيش مع أخت لى تحت سقف واحد وليس مع زوجة أحببتها وارتبطت بها ثلاثين عاما ، وهذا كله على حساب مشاعري التى تنبئنى أننى مازلت حيا وما زالت فى العمر بقية ، ولقد دفعنى ذلك لأن اتساءل هل من العار لمن كان فى مثل سنى وكانت فى مثل عمرها أن يترجما المودة والحب اللذين جمعا بينهما ثلاثين عاما إلى ما هو أكثر من عبارات المجاملة العادية ، وحبى لرفيقة حياتى مازال على ما هو عليه منذ تزوجتها ؟

إننى أعرف بالطبع أنها تمر بمرحلة ما يسمونه خطأ بمرحلة سن اليأس وأعرف ما تمر به المرأة من تحولات فى هذه المرحلة من العمر ، لكنى أعرف أيضا أن بعض النساء تنعكس عليهن كلمة « اليأس » هذه بطريقة مبالغ فيها ويعتقدن أن إقبالهن على أزواجهن وإظهار مشاعرهن لهن فى هذه السن يعتبران عيبا ينقص من احترامهن لأنفسهن ، كما أن نفور بعض الزوجات من أزواجهن فى هذه المرحلة من العمر كثيرا ما يدفع هؤلاء الأزواج

إلى الشك فى تحول مشاعر زوجاتهم عنهم والاسترابة - فى وجود « رجل آخر » فى حياتهن وهو ظن خاطيء بالطبع لكن من يتوهمونه لديهم بعض العذر فيه من أحوال زوجاتهم معهم فى هذه المرحلة من العمر .

ولقد وجدتني أفكر لا إراديا فى هؤلاء الرجال الذين تحولوا وهم فى مثل سنى إلى امرأة أخرى سواء بالزواج الثانى الذى يزلزل حياتهم العائلية ، أو بالعلاقة غير المشروعة .. واتخيل أنهم لابد قد مروا بمثل ظروفى الحالية ، وحاولوا جاهدين إصلاح ما فسد من علاقاتهم بزوجاتهم بلا جدوى ، فلم يعبروا عن أنفسهم فكان هذا التحول ، واتساءل هل يجوز أن نلوم كل من تزوج بأخرى فى مثل هذه السن ونتهمه بالجحود وخيانة العهد وسنوات العشرة الطويلة مع زوجته وأم أولاده أو نتهمه كما يفعل البعض الآخر بالخرف والمراهقة المتأخرة إذا كانت دوافعه لما فعل مماثلة لما أشكو منه الآن ؟

إننى كغيرى لا أوافق أمثال هؤلاء الرجال على تصرفاتهم وخاصة على تورطهم فى علاقات غير مشروعة مع غير زوجاتهم ، ولا أؤمن بالزواج الثانى بعد أن استقرت سفينة الحياة بالزوجين والأبناء بعد رحلة العمر الطويلة ناهيك بالطبع عن العلاقة غير المشروعة لكنى اتساءل عن دور الزوجة فى دفع بعض هؤلاء الرجال إلى الزواج الثانى أو سلوك الطريق غير المشروع فى هذه المرحلة من العمر التى تبدأ غالبا بعد الخامسة والخمسين .

قد تقول لى يا سيدى إن مصارحتى لزوجتى بكل ما أشعر به

هى الحل ولا شك أنها الوسيلة الطبيعية للتعامل مع هذه المشكلة ، لكنى من ناحية أخرى لا أقبل الإحساس بأن زوجتى تقترب منى لمجرد إرضائى وهى كارهة ، فهذا يجرح كبريائى وإحساسى بآدميتى ، كما أننى لا أقر فكرة الزواج الثانى نهائيا لا فى مثل سنى ولا فى أى مرحلة من العمر ، ومن أسف أنه لا توجد لدينا فى الشرق هيئات علمية أو اجتماعية يمكن اللجوء إليها وطلب المشورة منها فى مثل هذه الحالات ، بل إننا نشعر بالخجل والحياء أيضا لمجرد الحديث فى مثل هذه الأمور حتى مع أقرب الأصدقاء ، وكان هذا العامل وحده هو سبب ترددى فى الكتابة إليك طويلا فماذا أنت قائل لى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يحتاج الرجل إلى زوجة وشريكة للقلب والمشاعر طوال العمر وليس فقط إلى أم لأبنائه أو جدة لأحفاده .. لكن المشكلة أن بعضنا يشعر بالعمر شعورا مرضيا فيغالى فى الاحساس بتقدم سنه وانقضاء الشباب وانتهاء الدور والحق فى الاستمتاع بالحياة ، فيورثه هذا الشعور المتضخم بالعمر زهدا فى متع الحياة المشروعة وتعففا عنها وميلا للنفور منها أو اعتبارها مما لا يليق به فى سن الجلال والاحترام وكل ذلك ليس من العدل أو الدين أو الصحة النفسية والوجدانية للإنسان فى شئ فالحياة لا تنتهى إلا بانطواء صفحة الإنسان فوق سطح الأرض ، والمشاعر والأحاسيس لا تعرف الشيخوخة أو التوقف ما دام فى الإنسان قلب ينبض ودم يسرى فى العروق ، واستاذنا نجيب محفوظ يقول لنا فى

أصداء السيرة الذاتية « إننا قد طبعنا على حب الحياة وكره الموت ». ولا حيلة للمرء فيما فطره عليه خالقه سبحانه وتعالى ، والمرحلة التي يفرغ فيها الزوجان من مسئولياتهما العائلية ويرحل عنهما الأبناء ليقيموا اعشاشهم الصغيرة وتنتهي فيها سنوات البناء والكفاح التي أمتصت طاقات الزوجين في العمل الشاق وتربية الأبناء هي المرحلة التي يسميها علماء النفس في الغرب حرفيا : السن المحلاة بالسكر أو «Sugarage» ، وهي السن التي تنهيا فيها النفس لتذوق مباحج الحياة الحقيقية من متع معنوية ونفسية وعاطفية لم تسمح الظروف خلال سنوات الكفاح والعمل الشاق الطويلة بإعطاء الوقت الكافي لها وفي هذه المرحلة الذهبية من العمر فإن الزوجين لا يتوقفان عن النشاط العاطفي بدعوى أنه لا يليق بهما وهما في سن الجلال والاحترام أن يتبادلا كلمات الغزل واللمسات العاطفية والرومانسية بل لعلهما على العكس من ذلك قد لا يجدان من مراحل العمر ما هو جدير بمثل هذه اللفتات من هذه المرحلة التي خلا كل منهما فيها لصاحبه واشتدت حاجته العاطفية والإنسانية إليه .

والمشكلة هي أن بعض الزوجات قد يربطن ربطا خاطئا بين بلوغهن سن التوقف عن الانجاب التي تسمى ظلما بسن اليأس ، وبين الظن الخاطيء بانتهاء دورهن كزوجات في حياة أزواجهن وبداية دورهن كجدات للأحفاد ورفيقات للزوج في وحدته بعد زواج الأبناء .

وبعض مشاكل الأزواج والزوجات في هذه المرحلة من العمر التي قد تدفع بعض الأزواج إلى الاعتقاد بتحول مشاعر زوجاتهم عنهم .. وإلى التفكير في الزواج الثاني أو العلاقة غير المشروعة ترجع أساسا إلى أنهم لا يتعاملون بحكمة مع المتغيرات الفسيولوجية التي تتعرض لها المرأة في هذه المرحلة من العمر فيطلبون لها العلاج المتاح بدلا من تجاهلها أو الجهل بها .

فالمرأة تتعرض في هذه المرحلة من العمر لبعض المتغيرات الفسيولوجية التي تنجم عن نقص هورمون الاستروجين في جسمها منها اللفحة الساخنة أو الفورات التي تتمدد فيها الأوعية الدموية على نحو غير عادي وتنشط الغدد العرقية فتشعر المرأة بموجة ساخنة تجتاح الصدر إلى أعلى ومنها الشكوى من تدفق اللعاب في الفم أو جفافه وما يرافق ذلك أحيانا من غثيان وصداع أو دوار وأرق ، وما قد يترتب على كل ذلك من بعض الاضطرابات النفسية المؤقتة كالاستسلام للاحساس بالكآبة وفقد الثقة بالنفس والشعور بمركب النقص والاحساس بالإهمال من جانب الزوج مما يقودها إلى الغيرة القاتلة المدمرة في بعض الأحيان ، فضلا عما يؤدي إليه نقص الاستروجين من ضمور في بعض أنسجة الجسم ويجعل النشاط العاطفي مؤلما للزوجة ويدفعها للنفور منه وتجنبه ، وكل ذلك قابل للعلاج بشرط أن تنتبه المرأة لهذه الأعراض وتطلب العلاج المتاح لها .. غير أن مشكلتنا كما نقول هي أنه لا توجد لدينا هيئات متخصصة في هذا النوع من الاستشارات الأسرية أو لا توجد بالقدر الكافي ..

ولم يستقر بعد في وعينا سلوك التوجه إليها وطلب مساعدتها ومشورتها في مثل هذه المشاكل الزوجية ، كما أننا مازلنا للأسف نخجل كما تقول من الحديث عن هذه الأمور حتى لأقرب الأصدقاء ونفضل غالباً أن نكابدها صامتين أو أن نكتفى بالشكوى من أعراضها .. أو نبحث عن حلول خارجية للمشكلة ونعتبر الزوجات مسئولات عن ذلك دون محاولة لعلاج الأسباب .

ومواجهة الحقيقة في النهاية خير دائماً من تجاهلها أو الاكتفاء بالشكوى من آثارها وبعض أسباب هذه المشكلة التي تحدثني عنها بالنسبة لزوجتك لا يندرج في تقديري تحت بند الاضطرابات النفسية المصاحبة لهذه المرحلة من العمر بقدر ما يندرج تحت بند الشعور المغالى فيه لديها بتقدم العمر والربط الخاطيء عندها بين النشاط العاطفي والإحساس بالتعارض بينه وبين ما ينبغي للمرأة من وقار واحترام كأم وجدة في هذه المرحلة من العمر وإنني لأتفق معك في مسئولية مثل هذه المفاهيم الخاطئة لدى بعض الزوجات عن تطلع أزواجهن إلى الحصول على زادهم العاطفي خارج نطاق الأسرة .. غير أن الخطأ لا يبرر الخطأ في النهاية ولا بد دائماً من السعى لتصحيح الأخطاء بدلاً من التماس العذر فيها لارتكاب المزيد من الأخطاء .. ولا بد لزوجتك من أن تعينك على أمرك بطلب العلاج المتاح لآثار نقص الاستروجين في الجسم وبتصحيح بعض مفاهيمها الخاطئة عن العمر والعاطفة ودور الزوجة في حياة زوجها الذي لا يتناقض أبداً مع دورها كأم أو جدة .

الشاهد:

أنا شاب عمري ٣١ عاما أعمل فى وظيفة مناسبة بشركة محترمة وبمرتب معقول ، وقد تزوجت منذ ٥ سنوات من فتاة أحببتها .. وتمنيت أن أسعد بحياتى معها وأن أسعدها .. ووفقنى الله فى اعداد مسكن مجهز بالتليفزيون والثلاجة والغسالة الأتوماتيك ، وأصبح بيتنا جميلا فى عين كل من يدخله ، ويلمس بساطته وتناسقه والذوق السائد فيه .

وحين انتهيت من اعداد هذا المسكن الصغير قلت لنفسى إننا قد جهزنا « المكان » ولم يبق إلا أن نبعث فيه دفء السعادة والود المتبادل والعشرة الحلوة ، واقبلت على حياتى الجديدة مفعما بالأمال والرغبة القوية فى السعادة ، لكننى لم أحظ بشيء من ذلك للأسف ، لأن زوجتى غير راضية عما أتيح لنا من أسباب ، وأعيش فى نكد مستمر منها ، ومن أهلها الذين يناصرونها على طول الخط ظالمة ومظلومة ، وكذلك بسبب نصائح أمها لها بأن كل ما عليها أن تفعله حين نتشاجر هو أن تضع « ماكياجاً » كاملاً على وجهها ، وترتدى أحسن قميص لديها .. وتفتح جهاز التسجيل على أعلى صوت له وكأنها تقول للجميع أنه لا يهمها زوجها فى شيء !

أما في مناقشاتنا فهي لا تلتزم الأدب معي ويرتفع صوتها عليّ ، وتنطق بالفاظ غير محترمة مما يجبرني وأنا الرجل الهاديء المصلى الذي يشهد له الآخرون بحسن خلقه على الرد على إهاناتها ..

وحتى بعد أن أنعم الله علينا بالولد استمرت والدتها تؤلبها على وعلى أخوتي الذين يكونون لزوجتي الحب وذلك لكي تقطع علاقاتها بهم بالرغم من أنهم يقيمون في أطراف المدينة ولا يزوروننا كثيرا .

وحين بلغ ابني من العمر عامين ونصف العام أصبح للمشاكل بيننا شكل آخر وعند حدوث خلاف بيني وبينها خلال الليل فإنها بدلا من أن تحتوى المشكلة لكيلا يصحو الطفل من نومه ، فإنها توقظه لكي يشهد « الخناقة » بيني وبينها ويكون « شاهدا » على ما يجري بيننا فلا يملك الطفل الصغير إلا أن يبكي ويرتجف من الخوف والفرع ، وفي بعض الأحيان قد لا تكفي بايقاظه فقط ، وإنما تضربه أيضا لكي ينشأ « معقدا » مثلها كما تقول لي .

ومنذ بضعة أسابيع طلبت مني أن تذهب إلى بيت أهلها لحضور حفل عيد ميلاد أحد إخوتها .. واعترضت على ذلك لمرضها بسبب الحمل ، فذهبت إلى أهلها غاضبة .. واستبقاها الأهل لديهم بغير أن يرشدها أحد منهم إلى الصواب وأيدوها على طول الخط كعادتهم معها ، وكان شرطهم لعودتها للبيت أن يتنازل أهلي عن دين لهم أقترضته منهم لعلاجها عقب الولادة من مرضها .. وألا التزم بدفع أقساطه ، لأن ذلك كما يقولون يؤثر على حياة ابنتهم .

إننى أكتب إليك الآن لكى أقول لك إنه لا أحد يطلب التعاسة لنفسه أو يتمنى الفشل فى الزواج ، لكن ظروف الحياة قد تضطرننا فى بعض الأحيان إلى أن نفعل ما لا نتمناه لأنفسنا .. فأنا مثلاً لم أكن أتصور أن يجيء اليوم الذى أفكر فيه جدياً فى الطلاق ، وهدم بيتى وتمزيق طفلى الصغير بينى وبين أمه .. ويكر على حياتى الآن التفكير الدائم فى مصير هذا الطفل البريء .. ومصير الجنين الذى لم يأت إلى الحياة بعد .. فماذا أفعل يا سيدى .. وماذا تقول لهذه الزوجة ولأهلها الذين يناصرونها دائماً ضدى ؟!

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نعم يا صديقى لا أحد يطلب التعاسة لنفسه أو يرغب بصدق فى حرمان أطفاله من سعادتهم ، وأمانهم بين أبويهم ، لكن السعادة لا تتحقق بالتمنى وحده ولا بالرغبة السلبية فيها ، وإنما تتحقق كذلك بالعناء .. وبالصبر على بعض المكاره .. والتعالى على الصغائر ، والتحلى بالمرونة الضرورية فى بعض الأوقات ، وإلا تحولت العلاقة بين كل زوجين إلى علاقة صراع لا علاقة تفاعل وتجاوز وتنازلات متبادلة وحرص مشترك على حماية الحياة الزوجية من الانهيار .

بل إننا نحتاج فى بعض الأوقات لكى نحافظ على سفينة الحياة طافية فوق سطح الماء إلى أن نستعير من العلوم السياسية بعض قواعد فن إدارة الأزمات ونطبقها بحكمة على حياتنا الخاصة ، ومنها أن نعرف متى نتراجع عن إرادة

أو رغبة لا يؤدي التمسك المتحجر بها للنهاية إلا إلى انفجار الموقف وتقطع الخيوط بيننا وبين الآخرين .. وأن نكون مستعدين في بعض الأحيان للقبول بالحلول الوسط بديلاً عن الحلول المثلى الملبية لكل رغباتنا وشروطنا ، وأن نتجنب الاستجابة لاستفزازات الآخرين ، ونفوت عليهم الفرصة لدفع الأمور بيننا وبينهم إلى الطريق المسدود ..

وما تشكو منه من مشاحنات بينك وبين زوجتك ومناصرة أهلها لها ضدك .. وما تتصوره من تحريض أمها لها عليك ، و « نصائحها » غير الحكيمة لها بشأن التعامل معك في وقت الخلاف ، كل ذلك مما يمكن احتواؤه وإصلاحه وتخفيف آثاره السلبية .. والصبر على مكارهه .. إذا انعقدت إرادتك وإرادة زوجتك على إنقاذ سفينتكما من الغرق ، وإنقاذ طفلكما الصغير من الشقاء وطفلكما المقبل من المصير المجهول .. وتحديد الهدف الذي يستحق أن يسعى إليه الإنسان بكل ما يملك من جهد وطاقة يؤدي به بالضرورة إلى استبعاد الوسائل التي لا تعينه على بلوغ الهدف .. واتخاذ كل الوسائل التي تقربه منه .. فإذا اتفقنا على أن الهدف الأساسي لك ولزوجتك ينبغي أن يكون إنقاذ حياتكما الزوجية من الانهيار وطفلكما والجنين القادم من عالم الغيب مما يتهدهما من تمزق وحيرة وضياح إذا حدث الانفصال بينكما ، فإن ذلك يفرض على كل منكما أن يتنازل عن كل « الأهداف الصغيرة » الأخرى له كهدف الانتصار الرخيص في معركة قهر إرادة الطرف الآخر وإملاء الرغبات وفرض الشروط وأن يركز جهده

على كل ما يقرب وليس ما يفرق بينكما .
وقديماً قال الأديب الانجليزى لورد جون أوبك أفبرى ، إن
الفشل الشريف خير من الفوز الرخيص ، وتطلع كل منكما الآن
فى هذا الموقف المتأزم لفرض ارادته على الآخر دون أى تنازل
من جانبه وإلا وقع الانفصال لن يكون إذا تحقق على حساب
مصير طفلكما وجنينكما سوى فوز رخيص ، الفشل فى
تحقيقه أشرف كثيراً من النجاح فيه .
وفشل كل منكما الآن فى املاء رغباته على الآخر إذا كانت
نتيجته الحتمية هى توصلكما معا لحل وسط واستعادة
الوفاق بينكما وعودة طفلكما للحياة بينكما بلا قلق
ولا اضطرابات هو عين « الفشل الشريف » الذى يحق لكل ذى
قلب حكيم منكما أن يفتخر به ويحتسبه من فضائله وليس
من مواقف ضعفه أو هزائمه .
ولهذا كله فإنى أدعوك أنت وزوجتك وأهلك إلى كلمة سواء
تتوصلون معها باذن الله إلى تبديد غيوم الخلاف والشقاق
بينك وبين زوجتك وإعادة الأمان والاطمئنان لحياتكما
وطفلكما وجنينكما المقبل مع رجائى الحار لزوجتك إذا
ما نشب بينكما فى المستقبل أى خلاف - أن تعفى طفلكما
البرىء من « الشهادة » عليه .. وأن تؤمن مع العقلاء
والرحماء من الآباء والأمهات بأن أئمن ما يقدمه أب وأم
لأطفالهما مهما يكن نوع العلاقة بينهما ، هو طفولة سعيدة
خالية من الآلام .. والأحزان .. والمؤثرات السلبية الكريهة ،
وليست طفولة معذبة شقية حافلة بمثل هذه « الشهادات »
الإنسانية !

الهروب إلى الماضي!

أنا شاب فى الخامسة والعشرين من عمرى نشأت فى أسرة متدينة .. وكنت الابن الوحيد لأبوين من رجال التعليم الأب يعمل مدرسا للغة العربية ووكيلا لمدرسة إعدادية ، والأم مدرسة لمادة التاريخ بنفس المدرسة . فنهلت منذ صغرى من نبع الحب والحنان المتدفق فى قلب أمى وصدر أبى .. ونشأت منذ طفولتى على الالتزام والطاعة .. بالرغم من أننى ابن وحيد وشعرت دائما باعتزاز أبى وأمى بى . ومضت بنا سنوات العمر وتقدمت فى الدراسة من مرحلة إلى مرحلة حتى حصلت على الثانوية العامة ، والتحقت بالجامعة وبدأت أتطلع للحياة والمستقبل ، وأحلم بالغد الذى أتخرج فيه فى كليتى وأعمل .. وتضع الحياة فى طريقى الفتاة التى سأرتبط بها وتشاركنى رحلة العمر .. إلى أن قطع على هذه الأحلام السعيدة يوم الاثنين الأسود اللعين الذى وقع فيه الزلزال الكبير فى ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ ورجعت إلى البيت عقب وقوعه بساعة فإذا بى أجد بيتنا ركاما وحطاما وأكواما من التراب ، وأبى وأمى تحت أنقاضه ، فأقف وسط رجال الإنقاذ منهارا ومذهولا وضائعا أشهد مشهد الختام المؤلم فى حياة أبى وأمى ، اللذين كانا كل ما لدى فى هذه الدنيا الغادرة .. وأراهما

بأم عيني محمولين على محفات رجال الانقاذ إلى المصير المحتوم .
وكنت حين وقعت هذه المأساة التي غيرت كل شيء في حياتي في
التاسعة عشرة من عمري فانتقلت للعيش مع جدتي لأمي وحاولت
جدتي أن تعوضني بعض ما فقدت من حب وحنان ولكن هيهات
أن تستطيع ذلك وحزنها هي نفسها كان أضعاف حزني ..
وحاولت أن أتحصن بالقرآن والصلاة لكني كنت قد فقدت شيئاً
من روعي السابقة لا أستطيع استرداده .. ووسط هذه الظروف
القاسية واصلت دراستي حتى انتهيت منها وهزم الحزن والقهر
جدتي الطيبة فرحلت هي الأخرى عن الحياة رحمها الله ووجدت
نفسي وحيداً تماماً في الدنيا ونظرات الاشفاق تحيط بي من كل
جانب .

وعقب وفاة جدتي كرهت الحياة في بلدتي التي نشأت فيها ..
فتركتها هرباً من نظرات الشفقة التي تقتلني وانتقلت إلى مدينة
ساحلية كبيرة عسى أن أنسى فيها حزني وهمي ووحدتي ،
وعملت في مكان لا يعرفني فيه أحد على الإطلاق ، وتضرعت إلى
الله أن يمدني بالقدرة على تحمل حياتي ، لكني تحولت إلى إنسان
نصف غائب عن الوعي وفقدت توازني النفسي وعجزت عن تحمل
الواقع . فرحت أهرب منه إلى الماضي وأعيش فيه واستعيد مشاهد
حياتي السابقة قبل سنوات حين كنت أعيش في بيت دافئ بالحب
والحنان .. وأرى نظرة الحب والاهتمام في عيني أبي .. ونظرة
الحب والفخر والاعتزاز في عيني أمي ، وأراني محور حياتهما
واهتمامهما في كل شيء فإذا كنت خارج البيت لا يهدأ لهما بال
إلا حين يسمعان صرير مفتاح الشقة وأنا أفتح به الباب وأدخل
عليهما قائلاً : مساء الخير يا بابا .. مساء الخير يا ماما .. فيردان
على التحية بأحسن منها ، ويطمئن قلباهما .. وتنهض أمي لاعداد

العشاء لى .. ويدعونى أبى للجلوس بجانبه بعض الوقت قبل أن ينام ويسألنى عما فعلت خارج البيت .. ومن من الأصدقاء قابلته وماذا قلنا فى سمرنا معا .. وينصت باهتمام شديد لما أحكيه له من ذلك كأنما ألقى على أسماعه الدرر الغالية .. ويضحك من قلبه على أية نادرة أرويها له وترجع أُمى بصينية العشاء وتشاركنا الضحك وتحدونى بعطفها كأنى طفل صغير .. أما احتياجاتى ومطالبى فقد كانت لها الأولوية المطلقة عندهما .. ومن بعد ذلك كل شىء يمكن تدبيره أو الانتظار عليه .. وإذا جلسا فى أول الشهر يعدان ميزانية البيت كان أول ما يفكران فيه هو مصروفى .. وثمان كتبى .. وملابسى .. الخ ، أما إذا مرضت بنوبة برد أو نزلة معوية ، فلا شاغل لهما إلا صحتى ودوائى ونصحى بالراحة وعدم التسرع فى الخروج من البيت قبل الشفاء التام .. وأما يوم نجاحى فى نهاية العام فهو عيد خاص لهما تنهال على فيه كلمات التهنئة والإشادة وعبارات الدعاء لى بالفلاح والسعادة فى الحياة ، وهكذا تتوالى على الذكريات .. وتترأى لى الوجوه الحبيبة فى وحدتى وتمضى بى الساعات وأنا مستغرق فى الماضى الجميل .. فكأنما أعيش فيه أكثر مما أعيش حاضرى التعيس .. ويسىء من حولى تفسير هذا الصمت شبه الدائم وهذه العزلة وتتساءل نظراتهم عما يحول بينى وبين الاندماج معهم ..

ولقد كتبت لك هذه الرسالة لأنه لا صديق لى أشكو إليه حزنى وهمى فأرجو أن تفتح لى قلبك وألا تضن على بنصيحتك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

حين يشد ضيقنا بتعاستنا قد نتلمس السلوى فى استرجاع ذكريات الأيام السعيدة فى حياتنا ومعايشة

رموزها وشخصيتها في مخيلتنا ووجداننا لبعض الوقت .
ولقد عبر عن هذا المعنى الأديب الفرنسي الكبير جوستاف
فلوبير حين فرقت الأيام بينه وبين أسرته وأشدت إحساسه
بمعاناته في وحدته ، فكتب في رسالة إلى أمه يقول : بينما
يوصل جسدي خطواته إلى الأمام فإن أفكاري لا تفتأ ترجع
إلى الوراء وتعود إلى الأيام السعيدة التي عشتها في كنفك ..
غير أن استرواح نسائم الماضي السعيد بهدف استرجاع
بعض لحظاته الجميلة من حين لآخر شيء .. والاستغراق
الكامل فيه معظم الوقت وبشكل يعوق تواصل الإنسان مع
حاضره وتقبله له شيء آخر ينبغي التوقف أمامه ..
والاحتراس من آثاره النفسية السلبية .. فحياة كل إنسان في
الحياة تتمحور دائما حول ثلاث دوائر هي ماضٍ بعيد يحن
إليه من حين لآخر .. وحاضر يحياه ويتواصل معه ويوجه
إليه كل همته واهتمامه .. وغد يتطلع إليه ويأمل فيه دائما .
واستغراق الإنسان في ماضيه على حساب حاضره والتطلع
لمستقبله يعني الهروب النفسي من الواقع والعجز عن تقبله
والتواصل معه .. واستغراق الإنسان في التطلع إلى الغد على
الناحية الأخرى يعني إهدار الحاضر لحساب مستقبل في علم
الغيب ، والاستغراق في الأحلام على حساب الواقع ،
والتوازن النفسي يطالبنا دائما بتقبل الحاضر والتواصل معه
ومعاشته بصفة أساسية فلا يمنعنا ذلك من التماس العزاء
من حين لآخر في ذكريات الماضي السعيد ، ولا من التمسك
دائما بالأمل في المستقبل . وأنت شاب في مقتبل العمر ..
ولم تكد جولتك في الحياة تبدأ أول فصولها ، ومهما كانت
قسوة المأساة التي فرضتها عليك أقدارك الحزينة ، فلا بد لك أن

تقبل بصبر وإيمان وشجاعة بواقعك الأليم .. وتكف عن الهروب النفسى منه ، لأنه لا جدوى للأسف من الاستغراق فى الحزن والصمت والعزلة ورفض الواقع والهروب منه إلى الماضى ، وأنت يا صديقى فى أشد الحاجة إلى التفاعل مع الحياة والاندماج مع البشر من حولك ، واكتساب الصداقات الجديدة وشغل أوقاتك بالنشاطات الاجتماعية المختلفة ، لأن الوحدة بلاء لا يحتمله الإنسان السعيد الذى تخلو حياته من الأحران والمآسى .. فكيف بمن كان فى مثل ظروفك الحزينة هذه التى تصبح فيها الوحدة بلاء لا يحتمله أولو العزم من الرجال ؟ إن المحزون تشدد حاجته إلى المشاركة الوجدانية فى أحزانه وليس إلى الانفراد بها دون الغير وليس هناك ما يدعوك إلى العزلة ورفض الآخرين والهروب بمأساتك من مكان إلى مكان .. ومن زمان إلى زمان ، كأنما تتوارى بسوأة ارتكبتها عن العالمين لأنك ضحية لأقدار مؤلمة ولست جانيا على أحد ، ولأنه لا معنى لانفرادك بأحزانك نفورا من نظرات الإشفاق فى عيون الآخرين إذا علموا بها أو شاركوك فيها .. والحق أنى على كثرة ما حاولت قدر جهدى فهم بعض أسرار النفس البشرية ، فإننى لم أستطع أن أفهم حتى الآن منطق نفور بعض المبتلين من نظرة الإشفاق عليهم فى عيون الآخرين ، ذلك أنه ليس فى إشفاق الآخرين علينا ما يدعونا للنفور منه بدلا من الامتنان له والتخفف به من بعض أحزاننا ، بل إن فى حرماننا من العطف الإنسانى ما يضاعف من معاناتنا ، ويشعرنا بوحدتنا الكاملة فى مواجهتها ، وبهوان أمرنا على الآخرين وافتقادنا لمن يهتمه أمرنا . وكل إنسان فى الوجود مهما علا قدره واشتد بأسه يحتاج إلى

شيء من العطف الإنساني من جانب المقربين إليه .. فهذا العطف ليس سوى « إعلام » له بأن هناك من يهتمون بأمره ويشفقون عليه من مكابدة همومه وحيدا .. فإذا كنا نرفض من يغالون في التطفل على الآخرين بأحزانهم وهمومهم بلا مبرر لذلك سوى الاعتمادية النفسية على الغير وادمان الشكوى واستجداء العطف ، فإنه ينبغي لنا أيضا أن ندين من يغالون في الانطواء على أحزانهم واعتبار إشفاق الآخرين سلوكا يربأون بأنفسهم عن التعرض له .. والههم من أشد الأسلحة فتكا بالإنسان إذا انفرد به وحده وافتقد المشاركة والعزاء .. ففيم انفرادك به دون غيرك من البشر .. وفيم نفورك من الآخرين وأنت في أشد الحاجة إلى الصحبة والإيناس ؟!

إننى أدعوك إلى أن تعتبر جماعة أصدقاء « بريد الأهرام » التى ستعقد اجتماعا قريبا لها بإذن الله فى مدينتك الساحلية هى أسرتك الكبيرة التى يسعدها انتماءك لها ومشاركتك فى أنشطتها .. ولسوف أدعوك بإذن الله إلى الاجتماع المقبل بمدينتك وأقدمك لأعضائها ومن بينهم عدد كبير من أبناء مدينتك سوف يتواصل اللقاء بينك وبينهم بإذن الله بعد انفضاض الاجتماع .. وليكن ذلك هو الخطوة الأولى فى خروجك من قوقعة الأحزان .. ومحاولة التواصل مع الحاضر والقبول به .. أما الخطوة الكبرى فلسوف تتحقق إن شاء الله حين تصنع أسرتك الصغيرة وتجمع الأقدار بينك وبين من تشارك رحلة الحياة وتتقاسمان فيها أحزانها وأفراحها .. بإذن الله .

صدر للمؤلف

١	أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٦
٢	يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نقد)
٣	هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٨
٤	صديقي لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٠ ط. رابعة ١٩٩٦
٥	نهر الحياة	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٠ ط. ثالثة ١٩٩٦
٦	العصافير الخرساء	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩١ ط. ثالثة ١٩٩٦
٧	صديقي ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩١ ط. ثانية ١٩٩٣
٨	العيون الحمراء	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٢ ط. خامسة ١٩٩٨
٩	افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٢ ط. ثانية ١٩٩٦
١٠	اندهش يا صديقي	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٢ ط. رابعة ١٩٩٧
١١	أزواج وزوجات	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٣ ط. ثالثة ١٩٩٦
١٢	أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٣ ط. ثانية ١٩٩٦
١٣	رسائل محترقة	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٣ ط. ثانية ١٩٩٦
١٤	وقت للسعادة.. ووقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٣ ط. ثالثة ١٩٩٦
١٥	شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٣ ط. ثالثة ١٩٩٦
١٦	أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى ١٩٩٤
١٧	لا تنسنى	قصص رومانسية	ط. أولى ١٩٩٥ ط. ثانية ١٩٩٦
١٨	نهر الدموع	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٥ ط. ثانية ١٩٩٦
١٩	أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٧ ط. رابعة ٢٠٠٠
٢٠	خاتم فى اصبع القلب	صور أدبية	ط. أولى ١٩٩٦ ط. ثالثة ١٩٩٩
٢١	وحدى مع الآخرين	مقالات	ط. أولى ١٩٩٦ ط. ثالثة ١٩٩٩
٢٢	سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٧ ط. ثانية ١٩٩٨
٢٣	هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧

● صدر للمؤلف ●

٢٤	مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٥	أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٦	طائر الأحزان	قصص إنسانية	ط. أولى ١٩٩٦ ط. ثانية ١٩٩٧
٢٧	اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
٢٨	الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٩	سائح في دنيا الله	أدب رحلات	ط. أولى ١٩٩٧ ط. ثانية ١٩٩٨
٣٠	قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٣١	صور من حياتهم	قصص قصيرة	ط. أولى ١٩٩٨ ط. ثانية ١٩٩٨
٣٢	ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٨
٣٣	أهلا مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٨
٣٤	عاشوا في خيالي	مقالات وصور أدبية	ط. أولى ١٩٩٨ ط. ثانية ١٩٩٩
٣٥	قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٦	ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٧	الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٨	دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٩	أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٤٠	أرجوك أعطني عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤١	من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠

فهرس

الصفحة

٥	١ - مقدمة
٧	٢ - حق الاختيار
١٩	٣ - سر التحول
٢٨	٤ - الزلزال المدمر
٣٨	٥ - كشف المستور
٤١	٦ - العواصف الهوجاء
٥٠	٧ - الخطة الجهنمية
٦٠	٨ - ابتسامة الهزيمة
٦٨	٩ - صراع الديناصورات
٧٦	١٠ - النظرة الأخرى
٨٣	١١ - النظرات المتبادلة
٨٩	١٢ - حصاد الصبر
١٠١	١٣ - الكلمات المرورة
١٠٨	١٤ - الضوء الوحيد
١١٦	١٥ - بطاقات الدعوة
١٢٥	١٦ - البيت الجديد
١٣٢	١٧ - خريف الحرمان
١٣٩	١٨ - الشاهد
١٤٤	١٩ - الهروب إلى الماضي
١٥٠	٢٠ - صدر للمؤلف

الترقيم الدولي

977 - 08 - 0927 - 6

رقم الإيداع

٢٠٠٠/٨٩٧٧